روايات عالمية للجيب 63

جوهرة النجوم السبعة



تأليف : برام ستوكر

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



هذا هو لقاؤنا الثانى مع (برام ستوكر Bram stoker) كاتب الرعب الأشهر فى العالم .. لا يُذكر هذا الاسم إلا وتثب إلى الذهن روايته المحظوظة (دراكيولا) التى كتبها عام 1897 ، إلا أن ستوكر فى الواقع لم يبتكر شخصية الكونت مصاص الدماء من فراغ ، بل سبقه (دوما) الفرنسى بتقديم ذات الشخصية فى مسرحية من فصل واحد ، وقد قام ستوكر بمزج لاميا Lamia الإغريقية وليليث Lilith العبرية ورواية كارميلا التى كتبها (شريدان لو فانو)(*) ، مع شخصية فلاد الوالاشى التى استقى معلوماته عنها من جلساته مع جاسوس مجرى اسمه أرمينوس فامبيرى . وهو الذى خلده فى شخصية فان هلسنج عدو دراكيولا العتيد .

كما قلنا من قبل فإن الرعب القوطى هو رعب البرق والشمعدانات والكونتات غريبى الأطوار الغامضين المتشحين بالسواد .. هو رعب القصور العتيقة والنفوس المعقدة والكونتيسات

(★) قدمت فى هذه السلسلة بالذات .

الشاحبات اللاتى يفقدن وعيهن عشر مرات فى الساعة .. لغويًا نشأت الكلمة من لفظة Gothic التى تدل على طراز من البناء يميز المبانى التى تدور فيها هذه القصص ، وكان أول من اصطك الكلمة (هوراس والبول Walpol) فى قصته (قلعة أوترانتو) التى سوف تقرؤها يومًا ـ بإذن الله ـ فى هذه السلسلة باعتبارها أول قصة رعب قوطى على الإطلاق ..

هذا هو الجو الذى سيطر (ستوكر) على أدواته ببراعة .. هنا يجب أن نوضح شيئًا : هناك قصص شديدة الإحكام عن السفر عبر الزمن ، خاصة مع كتابات (أزيموف) و(برادبورى) وأمثالهما ، كما أن أفلامًا مثل : (العودة للمستقبل) و(المفنى) قد قتلت الفكرة قتلاً واستكشفت كل جوانبها ، لكن يظل (هـ . ج . ويلز) هو أول من كتب عن آلة الزمن و (هو بسبق حائز تفضيلاً) .. نفس الشىء ينطبق على اختراع الهاتف مثلاً .. بالتأكيد لا يستطيع (جراهام بل) مبتكر الهاتف أن يستعمل تلك الأجهزة المعقدة التى نراها مع الشباب اليوم ، لكن يظل هو مخترع أول هاتف .. والشىء ذاته ينطبق على قصص (ستوكر) التى قد نجدها اليوم على شىء من السذاجة ، لكن من دونها لما جاءت قصص مصاصى الدماء الحديثة ولا ظهرت كاتبة مثل (آن رايس) ..

إبراهام ستوكر أو برام ستوكر هو كاتب مسرحى بريطانى ولد عام 1845 وتوفى عام 1912 . نشأ فى دبلن وتخرج فى جامعتها .. قضى عشرة أعوام كمخرج مسرحى ثم اتجه إلى لندن عام 1876 ليشارك فى إدارة مسرح ليسيوم ثم تفرغ للكتابة .

من قصصه الشهيرة (عرين الدودة البيضاء) و(مدفن الفئران) و(جوهرة النجوم السبعة) و(ممر الثعبان) و(ضيف دراكيولا) وكلها خلدت اسمه كواحد من أعمدة الرعب القوطى .

لما كانت قصة (دراكيولا) قد ترجمت مرارًا ـ وكانت ترجماتها موفقة جدًا ـ فقد تجنبتها ، وقدمت من قبل (عرين الدودة البيضاء)(*)، أما فى هذه المرة فأقدم ثانى أشهر قصة له : (جوهرة النجوم السبعة) ، ومن عباءتها خرجت كل مومياء فرعونية ملفوفة بالأربطة فى تاريخ السينما .. بدءًا بمومياء (يونيفرسال) التى لعب دورها (كارلوف) ، مرورًا بمومياء شركة (هامر) فى فيلم (دماء من تابوت المومياء) المخيف ، وانتهاء بمومياء المؤثرات الخاصة CGI فى فيلم (برندان فريزر) الشهير الذى شهدناه مؤخرًا .. وبهذا يكون (ستوكر) هو الذى أدخل مفهومى مصاص الدماء والمومياء معًا إلى عالم الرعب ..

من المهم أن نعرف أن هذه القصة (فكتورية) جدًا مليئة بالحوار

(★) الكتيب رقم 32

المنمق المرهق لقارئ اليوم ، وقد قمت بتخفيفه على كل حال . نُشرت عام 1903 بعد (دراكيولا) بستة أعوام ، لكن الناشرين وجدوا أن نهايتها شنيعة أكثر مما يتحمل القارئ الفكتورى المتحفظ (مرهف الحس) ؛ لذا أرغموا (ستوكر) على كتابة نهاية أخرى مبتسرة ، ويقال أحيانًا إن هذه النهاية الجديدة كتبها كاتب آخر بعد وفاة (ستوكر) بخمسة أعوام . سوف تجد النهايتين معًا فى نهاية القصة ولك أن تقرر أيهما أفضل ...

د. أحمد خالد

الفصل 1

استدعاء ليلى

بدا كل شىء حقيقيًا حتى أننى استطعت بصعوبة تصديق أنه حدث من قبل .. وبرغم هذا بدا كل ما يحدث كأنه شىء متوقع . هذه هى الطريقة التى تلعب بها الذاكرة حيلها سواء للخير أو للشر .. للسرور أو الألم .. للصلاح أو للويل .. لذا تجد أن الحياة لها مذاق حلو ومر معًا ، وما حدث فى الماضى قد صار أبديًا ..

من جديد كف القارب الخفيف عن شق المياه الكسول وانزلق خارجًا من ضوء شمس يوليو الشرسة إلى الظلال التى ألقتها غصون الصفصاف .. أقف أنا فى القارب المتأرجح وهى تجلس صامتة تحمى نفسها بأصابع أنيقة من الأغصان المرتدة ..

ومن جديد بدا الماء خليطًا من البنى والذهبى تحت مظلة من أخضر شفاف .. بينما بدت الضفتان كالزمرد .. ومن جديد جلسنا فى الظل بينما صخب الطبيعة ينسينا صخب العالم بهمومه وأفراحه ..

ومن جديد نسيت الفتاة تحفظها ، وراحت تحكى لى بطريقة حالمة ما تعانيه فى حياتها الجديدة من وحدة .. وضعتُ حكمة

الأعوام التى لدى عند قدميها ، وقد بدا أنه لا دور لى فى الأمر إنما أنا أنفذ ما يُملى على ..

ومن جديد تضاعفت الثوانى الضائعة ؛ لأنه فى طلاسم الأحلام تمتزج الموجودات وتجدد ذاتها .. تتغير .. لكنها تحتفظ بكينونتها .. وهكذا تدور الذكريات وتدور أثناء النوم ..

يبدو لى أنه ما من راحة مطلقة فى هذا العالم .. حتى سكون الأحلام فى الليل يبدده هدير الانهيارات ، وصوت الفيضان المباغت ، ورنين الجرس القادم من مكان ما .. مهما كان هذا الصوت فهو يبدد سحر جنتى .. فجأة انفتحت أبواب النوم على مصراعيها ، وعرفت أذنى سبب هذه الأصوات المزعجة .. هناك من يدق بلا توقف على باب بيت أحدهم ..

كنت قد اعتدت فى مسكنى بشارع (جيرمين) على الأصوات العابرة ، ولم أهتم بها كثيرًا .. لكن هذه الضوضاء كانت مستمرة عنيدة يصعب تجاهلها .. إنها أصوات يصدرها عقل ذكى وثمة حاجة ملحة وراء هذا العقل الذكى .. لهذا غادرت الفراش ..

نظرت لساعتى بشكل غريزى .. إنها الثالثة صباحًا .. كان من الواضح أن هذا الضرب على باب بيتى أنا .. ومن الواضح كذلك أنه ما من أحد مستفيق ليرد .. ارتديت الروب والخفين ونزلت إلى الباب ..

فتحت الباب فوجدت سائسًا أنيقًا لا يكف عن دق الجرس الكهربى ، بينما يواصل ضرب الباب بالأخرى .. ما إن رآنى حتى توقفت الجلبة ، ولمست يده حافة قبعته بحركة لا شعورية ، وباليد الأخرى ناولنى رسالة أخرجها من جيبه ، وكانت عربة أنيقة تقف أمام الباب .. وثمة رجل شرطة يسلط مصباحه على الباب وقد شدت الضوضاء انتباهه ..

ـ « آسف يا سيدى على الإزعاج .. لكن أوامرى كانت تقضى بأن أدق الجرس إلى أن يرد أحد .. هل مستر (مالكولم روس) يعيش هنا ؟ »

ـ « أنا (مالكولم روس) »

ـ « إذن هذا الخطاب لك يا سيدى »

تناولت الخطاب منه فى فضول .. بما أننى محام لدى المحاكم العليا فقد كانت لى خبرات غريبة من حين لآخر ، لكن هذه كانت أغربها .. واربت الباب ودخلت إلى الصالة لأتفحص الخطاب فى الضوء الكهربى بالداخل .. كان بخط امرأة وقد بدأت على الفور تكلمنى دون أية صيغة مخاطبة :

« قلت إنك ستساعدنى لو أننى أردت ذلك ، وأعتقد أنك كنت جادًا فيما قلت .. أنا الآن فى ورطة مخيفة ولا أعرف ممن أطلب العون .. هناك من حاول قتل أبى لكنه ما زال حيًا والحمد لله ..

« تعال فورًا لو كان هذا بوسعك واغفر لى ..

« مارجريت تريلونى »

إذن هى استعانت بى أنا .. أنا !... عندما حلمت بها لم يكن هذا مجرد حلم بسيط ..

قلت للسائس :

ـ « انتظر !.. سألحق بك .. »

خلال دقائق كنت قد اغتسلت وارتديت ثيابى وسرعان ما كانت الخيول تحملنا عبر الطرقات .. وسألت السائس ونحن فى الطريق عن سبب استدعاء السيدة لى ، فقال :

ـ « لا أعرف يا سيدى .. فقط هم وجدوا السيد فى حجرته فاقد الرشد والملاءات غارقة فى الدم ، وثمة جرح فى رأسه .. مس (تريلونى) هى من وجده . »

أوقفت العربة ليخرج ويجلس جوار الحوذى ورحت أقلب القصة فى ذهنى .. هناك الكثير مما أريد معرفته ، لكن من اللياقة أن أعرف كل شىء من مس (تريلونى) لا من خدمها ..

وصلنا إلى طريق قصر (كنزنجتون) فتوقفت العربة أمام بيت عظيم على يسار الطريق ، وحتى فى ضوء الفجر الشاحب أدركت فخامته .

قابلتنى مس (تريلونى) ولم تكن على ما عهدته فيها من خجل .. بدت تسيطر على كل ما حولها بشكل راق .. برغم هذا كانت شاحبة كالثلج . كان الخدم جميعًا هناك ورجال شرطة ..

صافحتنى وعلى وجهها ابتسامة تعكس الارتياح ، وقالت :

ـ « عرفت أنك ستأتى »

وشعرت بأن يدها تذوب فى يدى .. كان هذا استسلامًا لاشعوريًا لى .. وبرغم أننى لم أفهم سبب ما شعرت به من قشعريرة فقد عرفته فيما بعد ..

كانت على وشك تقديمى لمفتش الشرطة ، لكنه قال :

ـ « نحن متعارفان يا آنسة .. لا أعرف إن كان مستر (روس) يذكرنى لكن كان لى شرف العمل معه فى قضية (بركستون كويننج) .. »

ـ « بالطبع أذكر أيها المفتش .. وددت لو سمحت لى بالانفراد بمس (تريلونى) بعض الوقت ، فأنا أعتقد أنكم سمعتم ما عندها بالفعل . »

ومشيت معها إلى حجرة تطل على الحديقة فأغلقت الباب خلفى ، وسألتها :

ـ « قولى لى كل ما تعرفين مهما كان تافهًا .. »

قالت :

ـ « استيقظت على صوت لا أعرف كنهه .. فجأة وجدت نفسى يقظة وقلبى يدق بعنف .. غرفتى تقع جوار غرفة أبى ، وقد اعتدت سماع حركته فى غرفته لأنه يعمل لساعات متأخرة

جدًا .. جربت مرة أن أنصحه بعدم السهر ولم أكررها .. عندما يتكلم أبى ببرود وأدب يصير مخيفا .. أستطيع تحمله أفضل عندما يغضب ويثور .. ذهبت لباب غرفته فلم أسمع أى ضجة .. لكنى سمعت صوت جرٍّ غريب .. وقفت هناك فى الظلام خائفة .. خائفة من ماذا ؟.. لا أدرى !

« فتحت الباب قليلاً فوجدت الظلام دامسًا لكنى سمعت صوت التنفس الثقيل .. دخلت الغرفة وأضأت النور .. كان الفراش خاليًا لكن الملاءات مبعثرة بما يدل على أن أبى كان قد دخل الفراش .. كانت فى وسط السرير بقعة حمراء كبيرة .. وجدت أبى على جانبه الأيمن وذراعه الأخرى تحته كأن جسده قد ألقى هناك فى كومة .. وكانت بركة دم من حوله .. دم أحمر لامع مخيف .. كان راقدًا جوار الخزانة الكبيرة بمنامته .. الكم الأيسر ممزق ليكشف عن ذراعه .. واللحم ممزق حول سوار ذهبى حول معصمه .. لم أعرف قط أنه يلبس هذه الأشياء ..

« لم أضيع لحظة فى طلب العون لأنى خفت أن ينزف حتى الموت .. رفعنا أبى إلى الأريكة وراحت مدبرة المنزل مسز (جرانت) - التى احتفظت بثباتها - تفتش عن مصدر الدم .. بدا واضحًا أن مصدره هى الذراع .. كان هناك جرح . جرح غير منتظم كالذى تحدثه السكين ولكنه شق .. لهذا ربطت مسز (جرانت) الجرح بمنديل وعقدته بعناية فتوقف النزف ..

« طلبت الطبيب والشرطة ، وشعرت بأننى وحيدة ولا أعرف أحدًا ، ففكرت فيك .. تذكرت عرضك الكريم لى فى ذلك القارب تحت أشجار الصفصاف ؛ لذا أرسلت لك السائس فورًا .. »

نظرت لها ولم أرد أن أصارحها بما أشعر به ، لكنها فهمت .. فقد التقت عيناها بعينى ثم انحدرتا واحمر خداها ..

عندما خرجنا إلى رجال الشرطة ، قال لى المفتش :

- « لقد طلبنا مفتشًا من (سكوتلانديارد) .. الرقيب (دو) .. أنت تذكره يا سيدى من قضية التسمم فى (هوكستون) »

- « أذكره جيدًا .. ولكم أطريت ذكاءه .. إن له عقلاً يعمل ببراعة .. »

دق جرس الباب وبعد دقيقة ظهر رجل فى القاعة .. كان شابًا له ملامح النسر وله جبين عريض يدل على عمق التفكير ..

قدمته لنا مس (تريلونى) :

- « د. (ونشستر) .. مستر (روس) .. المفتش (دولان) .. »

انحنينا لبعض وسرعان ما بدأ عمله .. راح يضمد الجرح بعناية ، ثم سأل الآنسة :

- « هل يمكن أن تزيل هذا السوار ؟ »

احمر وجهها ، وقالت فى خجل :

ـ « لا أدرى .. لقد جئت مؤخرًا فقط لأعيش مع أبى ، ولا أعرف إن كان هذا يضايقه أم لا .. »

قال الطبيب :

ـ « ليكن .. فلنتركه ، لكن لربما احتجنا إلى إزالته فيما بعد .. ربما هو ذو أهمية معينة ما دام يتدلى منه هذا المفتاح الصغير .. »

وتناول من جيبه عدسة مكبرة وراح يتفحص السوار ثم ناوله لـ (دولان) .. وقال :

ـ « تفحصه بنفسك .. هذا ليس سوارًا عاديًا .. الذهب وضع ليزخرف ثلاث حلقات من الصلب .. واضح أن هذا السوار ليس للخلع بسهولة .. »

انحنى المفتش ليجثو على ركبتيه ويفحص السوار بعناية ، ودون بعض الأشياء فى مفكرته .. وأشرت للفتاة كى تتفحصه ، فتراجعت قائلة :

ـ « لا .. لو كان أبى يرغب فى أن أراه لعرضه علىّ بنفسه .. »

وكان الخجل والضيق واضحًا عليها لأنها لا تعرف أى شىء عن أبيها ، وإن قدرت أنها مسرورة لأنه ما من عين أنثى ـ أو أية عين أكثر ملاحظة وذكاء من عيون الرجال ـ تراها فى هذه اللحظة .

هنا دق الباب من جديد ..

الفصل 2

تعليمات غريبة

اتجه المفتش (نولان) للباب ليفتحه ، وكان بطريقة طبيعية قد تولى مسئولية كل شىء هنا .. انفتح الباب فدخل شاب حليق الذقن طويل القامة له عينان سريعتا الحركة ، صافحه المفتش بحرارة . كان هذا هو الرقيب (دو) رجل سكوتلانديارد الذى استدعوه .. والذى راح يصغى لتفاصيل القصة بانتباه ..

ثم إنه طلب من الطبيب أن يكتب تفاصيل ما رآه بدقة ، وبحيث يستطيع أن يسلم التقرير لرؤسائه ..

قال الطبيب :

ـ « لا يوجد ما يمنع من أن أكتب التقرير الآن .. فقط هناك نقاط لابد من أن تلاحظها .. لا توجد جروح بالرأس تبرر غياب المريض عن وعيه .. علىّ أن أفترض أنه تحت تأثير مخدر ما .. هذا الاحتمال مستبعد لأننى لا أجد علامات المخدرات ـ على الأقل التى أعرفها ـ وهذا على كل حال عسير لأن رائحة المومياوات تملأ المكان .. عطور مصرية وقار وناردين وصمغ وطيب .. ربما كانت رائحة الشىء الذى سبب هذا موجودة ضمن هذه العطور .. »

قال المفتش :

ـ « على الأقل كان بوسعنا أن نجد الأداة التى سببت جرح المعصم .. »

فكرت أنا فى أن يكون الأب قد جرح نفسه وهو تحت تأثير العقار .. ولربما أخفى السلاح فى الخزانة قبل أن يفقد وعيه ..

قال المفتش :

ـ « هذا مستحيل أو على الأقل عسير .. إن الدم يلوث ذراعه تمامًا ، بينما لا توجد قطرة دم واحدة على الخزانة .. »

قال الطبيب :

ـ « أرى أنه لابد من ممرضة تعنى به ، وأنا أعرف واحدة مناسبة ، لكنى أقترح أن تبقوا معه إلى أن أحضرها .. عليك يا مس (تريلونى) أو مسز (جرانت) بالبقاء هنا جواره إلى أن أعود .. »

سأل الرقيب (دو) المفتش قبل انصرافه عائدًا لقسم الشرطة :

ـ « هل (جونى رايت) فى قسمك ؟ »

ـ « نعم .. هل ترغب فى أن يكون معك ؟ »

هز (دو) رأسه أن نعم ، فقال هذا :

ـ « سأطلب منه أن يلحق بك فورًا وأن يتلقى التعليمات منك .. »

طلب المفتش من مس (تريلونى) أن تسمح له بتفتيش مكتب أبيها لعل فيه شيئًا مهمًا ، ولدهشته وافقت على الفور .. راح يعبث هنا وهناك ثم أخرج خطابًا ، وقال لها :

ـ « هذا خطاب لك ! »

قالت فى لهفة :

ـ « خطاب لى وأبى يحتفظ به ! »

وفتحته .. رحت أرقب وجهها وهى تقرأ .. كنت أرقب وجه المفتش فى الوقت ذاته .. عندما انتهت من القراءة كنت أحمل شكًا قويًا أبقيته فى قلبى ، ومن ضمن شكوك المفتش كان ذلك الشك نفسه .. الشك فى مس (تريلونى) ذاتها ..

لدقائق أبقت عينيها منخفضتين والخطاب فى يدها وهى تفكر بعمق .. ثم ناولت الخطاب للمفتش بشىء من عدم الرضا ..

قرأه مرتين دون أن يتبدل شىء فى وجهه ثم أعاده لها .. هنا ناولتنى الخطاب ومسحة من حمرة الخجل على وجهها ..

تناولت الخطاب شاعرًا بسرور لهذه الثقة .. وبدأت أقرأ :

« ابنتى العزيزة :

« أريد أن تعتبرى هذا الخطاب تعليمات مطلقة لا تناقش ، فى حالة ما حدث شىء غير متوقع لى .. لو لم أكن فى غرفة نومى لحظة اطلاعك على هذا الخطاب ، فعليك أن تنقلينى هناك فورًا .. حتى لو كنت جثة هامدة فعليك أن تنقلينى هناك ..

« من هذه اللحظة ، وحتى أستعيد وعيى وأعود لإصدار تعليماتى ، أو حتى أدفن ، فعليك ألا تتركينى وحدى لحظة واحدة .. منذ الغروب حتى الشروق يجب أن يكون هناك شخصان على الأقل فى الغرفة معى .. ويجب أن تكون هناك ممرضة مدربة تلاحظ حالتى بدقة ..

« إن محاميى (مارفين وجوكس) لديهما تعليمات واضحة فى حالة موتى .. لكنى أنصحك يابنتى ـ بما أنه لا أقارب لنا ـ بأن تجدى صديقًا مخلصًا يقيم فى الدار .. قد يكون هذا الصديق ذكرًا أو أنثى ، لكن لابد أن يكون معه مراقب آخر من الجنس المختلف ..

« لو كنت قد جرحت أو مرضت يا (مارجريت) فلن تكون هذه حادثة عارضة .. لا يجب نقل شىء من غرفتى وأنا هنا أتحدث عن التحف .. لابد من ترك كل شىء حيث هو .

« لو احتجت إلى شىء أو مال فإن مستر (مارفين) سينفذ كل شىء ..

« أبيل تريلونى »

ارتجف قلبى لدى قراءة هذه السطور .. صديق !.. يمكننى أن أكون هو .. ألم تطلب عونى وقت الضيق برغم أننى غريب بالنسبة لها تقريبًا ؟.. مجرد لقاء فى حفل راقص ومحادثة قصيرة فى قارب ..

لهذا ناولتها الخطاب ، وقلت :

ـ « أرجو أن تغفرى لى .. لكنى أرغب بالفعل فى أن أقوم بهذه المهمة معك .. »

احمر وجهها ، وقالت :

ـ « وهذا سيسرنى بالتأكيد ، لكنى لا أرغب فى أن أكون أنانية .. أعرف أنك مشغول .. »

ـ « سوف أعرف كيف أدبر شئون عملى بحيث أقضى الليل هنا »

هنا قال الرقيب (دو) إنه راض عن كونى سأتولى الأمر ، وطلب أن أبقى هنا إلى أن يتوجه إلى سكوتلانديارد لأنه سيبحث عن شركة الخزائن كى تساعده فى فتح خزانة الأب التى تغلق بمفتاح وأرقام سرية ..

جلست وحدى مع مس (تريلونى) .. بادلتنى نظرة شعرت بعدها بأننى أفضل جلستى هذه على أن أكون ملكًا ..

كانت الغرفة غريبة فعلاً .. هى حجرة نوم مريحة مرتبة بعناية لكنها مليئة بتلك التحف المصرية القديمة .. كانت الغرفة هائلة الحجم لذا اتسعت للكثير من هذه الأشياء ..

دوى جرس الباب ، وبعد قليل دخل علينا د . (ونشستر) ومعه امرأة شابة فى ثياب الممرضات .. وقال لنا :

ـ « كان الحظ حليفى فقد وجدتها على الفور .. مس (تريلونى) .. ها هى ذى مس (كنيدى) .. »

الفصل 3

المراقبون

أثارت دهشتى الطريقة التى تبادلت بها الشابتان النظرات .. ويبدو أن مهنتى علمتنى أن أدقق النظر فى انفعالات وتعبيرات وجوه الآخرين . كانت الفتاتان متناقضتين تمامًا .. كانت مس (تريلونى) رشيقة سمراء ذات عينين رائعتين شديدتى الاتساع ناعمتين كمخمل أسود .. النظر فيهما شبيه بالنظر فى مرآة سوداء .. مزيج من الضعف والقوة النابعة من الروح فقط ..

على النقيض كانت الممرضة (كنيدى) ممتلئة قليلاً .. قوية البنية لها يدان كبيرتان قادرتان .. لونها يشبه لون أوراق الخريف .. تلتمع عيناها البنيتان الذهبيتان وسط جلد ملىء بالنمش .. جبهتها مليئة بالتعقل والحكمة ..

عند العصر اتصلت بمسكنى فى شارع (جرمين) كى يرسلوا لى ثيابى وكتبى وأوراقى .. ذهبت للمحكمة وعدت لبيت (كنزنجتون) فى السادسة مساء فوجدتهم اختاروا لى غرفة كبيرة جوار غرفة المريض ..

لم نرتب أمور المراقبة لتلك الليلة .. آوت الممرضة للفراش لأنها كانت تعمل طيلة اليوم على أن تعود لنا عند منتصف

الليـل .. د . (ونشستر) ظـل معنـا حتى العشاء لأنه سـيتناوله هنا .. وظلت مسز (جرانت) فى الحجرة مع الرقيب (دو) ..

سأل الطبيب مس (تريلونى) عندما دخلنا غرفة أمها :

ـ « هل لديكم أية حيوانات ذات مخالب فى هذا المنزل ؟... حيوان يمكن أن يكون قد أحدث هذه الجروح فى ساعد أبيك ؟ »

ابتسمت ابتسامة حزينة ، وقالت :

ـ « لا .. أبى لـم يكن يحب أى نـوع من الحيوانـات .. حتـى قطِّى الوديع حسن التربية ممنوع من دخول هذه الغرفة »

هنا سمعنا صوت خـدش على مقبض البـاب ، فلمعت عيناهـا واتجهت لتفتح الباب ، قائلة :

ـ « هذا هو (سيلفيو) العزيز .. قطى .. إنه يقف على قائمتيه الخلفيتين ، ويخدش المقبض متى أراد الدخول .. »

وحملت القط وعادت به لنا .. كان حيوانًا رائعًا بحق .. قط فارسـى (شانشيلا) رمادى يبدو أنه كريم المحتد .. وله مخالب عظيمة ..

فجأة انتابـه الذعر فـأطلق مواء مفاجئـا ووثـب إلـى الأرض ، وركض إلى منضدة منخفضـة فـى ركـن الغرفـة ، عليهـا وضعت مومياء حيوان .. وبدأ يزمجر ..

عادت لتحمله فحاول المقاومة لكن من دون عضٍ أو خمش فقد بدا واضحًا أنه يحبها ..

ـ « أيها الشقى !.. لقد حنثت بعهدك مع أمـى .. قل مسـاء الخير للسادة واخرج من غرفة أمى ! »

ومدت كف القط لى كأنما لأصافحها .. هنا لاحظت أن فى كفـه سبعة أصابع .. برغم أنه كـان هادئـًا يقر فقد غرس مخلبًا فى كفى .. فصحت :

ـ « ياه !.. إنها كالموسى ! »

دنا د . (ونشستر) منا ، وقال وهو يفحص مخالب القط :

ـ « أوه !! »

وكنت أسمع أنفاسه المتسارعة .. اتجـه للمكتـب فمزق قطعـة من الورق النشـاف ووضـعها تحت كـف القط وضغط .. تملـص القط وأخـرج مخالبه ، وكـان هـذا هـو مـا يريـده الطبيـب لأن المخالب مزقت ورقة النشاف ..

مد الطبيب يـده وفـك الضمادة عن ساعد الأب .. هناك كـانت الجروح واضحة حمراء .. قرَّب ورقـة النشـاف منهـا .. وابتسـم فى انتصار .. كانت الآثار واحدة على الساعد وورقة النشاف !.. لم يعد أحد بحاجة لمزيد من التفسير ..

ساد الصمت الذى قطعته مس (تريلونى) قائلة :

ـ « لكن (سيلفيو) لم يكن هنا أمس ! »

ـ « هل أنت متأكدة ؟ »

ـ « متأكدة لكن أخشى أن إثبات هذا صعب .. إنه ينام فى سلة فى حجرتى ، وأنا متأكدة من أننى وضعته فى السلة ووضعت بطانيته عليه .. فى الصباح كان فى الوضع ذاته .. دعك من أن باب حجرتى كان موصداً عندما غادرتها أمس وكذا باب حجرة أبى .. عندما فتحت الباب كانت الإصابات قد تمت .. »

قال الطبيب بعد تفكير :

ـ « الحكم بعد المداولة : مستر (سيلفيو) برىء ، ونحن نعتذر له .. »

ثم قرر تغيير الموضوع ، فقال :

ـ « رأيناه يتوتر عندما رأى مومياء هذا الحيوان .. هل يتوتر مع كل المومياوات التى يعج بها المنزل؟ »

ـ « لا .. وربما كان السبب أن هذه مومياء قط .. »

قال الطبيب فى اهتمام :

ـ « هذه مومياء معتنى بها .. وإننى لأرغب فى أن تسمحى لى باستعمال مستر (سيلفيو) فى تجربة ، لكنه لن يكون المعتدى عليه ، بل سيكون المعتدى .. »

ـ « لا أفهم .. »

ـ « أريد أن أعرف ما سيقوم به نحو هذه المومياء لو سمح له بذلك .. سوف نقوم بعملية استبدال لهذه المومياء .. من ثم نعرف هل (سيلفيو) يكره كل مومياوات القطط أم هذه بالذات .. »

هنا جاءت الممرضة إلى الحجرة .. سيدة قوية الشخصية مسيطرة ، ساعدنى دخولها فى السيطرة على الهواجس التى غمرتنى فى جو الغرفة المثير للتوجس ..

كنت قد بدأت استشعر نوعاً من المخاوف يحوم حول المريض ، حتى صار جزءاً منها .. لكن دخول هذه السيدة أعاد له حجمه الطبيعى كمريض تعتنى به .. وسرعان ما فقدت الغرفة ما تبعثه فىَّ من رعب ..

لكن الشىء الوحيد الذى احتفظ برعبه كان رائحة المومياء .. لو أنك وضعت مومياء فرعونية فى إناء زجاجى لا يدخله الهواء فإن رائحتها ستظل تزكم أنفك .. برغم أنه يفترض أن أربعة آلاف سنة كفيلة بأن تزيل رائحة أى شىء .. تلك الروائح خالدة وأسرارها مجهولة لنا بالكامل .. لقد أجهدت خيالى وأتعبت أعصابى بحق ..

قررت أن أفعل شيئًا ؛ لذا غادرت المنزل وقصدت صيدلية قريبة لأبتاع جهاز استنشاق مما يستعمله مرضى الربو ..

كان الطبيب قد انصرف ورتبت مس (تريلونى) أن يتواجد دومًا رجل وامرأة فى حجرة المريض .. لذا جلست على أريكة فى حجرتى وطلبت من أحد الخدم أن ينادينى قبل منتصف الليل .. وسرعان ما غبت فى النوم ..

عندما صحوت احتجت لبعض الوقت كى أعرف أين أنا .. لقد أفادنى النوم لبعض الوقت .. اتجهت لغرفة المريض فوجدت الممرضة جالسة على الفراش هادئة متيقظة ، وعبر الغرفة يجلس المفتش فى الظل .. لم يتحرك إلا عندما دنوت منه ، فقال فى همس متعب :

ـ « كله تمام .. لم أنم .. »

وهو شىء لا لزوم له ما لم يكن يشعر بأنه غير حقيقى .. أخبرته أن بوسعه أن يخلد للنوم حتى أوقظه فى السادسة صباحًا ..

اتجه للباب ثم مال يهمس لى :

ـ « إن نومى خفيف وأحتفظ بالمسدس معى .. لن أشعر بهذا الخمول إذا ابتعدت عن رائحة المومياء هذه »

إذن هو كذلك جرب تأثير تلك الرائحة الذى يسبب الخمول !

لاحظت أن الممرضة تضع فى حجرها جرة عطر صغيرة مثقبة .. لابد أنها شعرت ببعض ما شعرت به .. اتجهت لذات المقعد فى الظل حيث ظهرها لى ، وذلك كى لا تلاحظ جهاز الاستنشاق الذى أحمله .. وقد قمت بتثبيته على أنفى واتخذت وضعًا مريحًا ..

مر وقت طويل على وأنا أفكر . أفكر فى الرائحة الفرعونية .. حقًا لا أدرى إن كنت نمت أم لا .. لعلى لمحت شيئًا ولعلى لم أفعل ..

ظهر الممرضة لى وهى هادئة ساكنة .. كل شىء هادئ ساكن .. كأن المشهد لا ينتمى لعالم الواقع .. الضوء خافت جدًا جدًا .. فقط غطاء الأباجورة الأخضر له لون ياقوتة تتلألأ فى ضوء القمر ..

خيل لى أن هناك صوتًا خافتًا كمواء قط .. صوت معدنى كمعدن يضرب معدنًا ..

فجأة عدت لحواسى ..

لقد دوت صرخة فى مسمعى وغمر الضوء الحجرة ..

صوت طلقات مسدس .. واحدة .. اثنتان .. ودخان أبيض يملأ الغرفة ..

عندما استعدت الرؤية كدت أصرخ أنا نفسى من هول ما رأيت ..

الفصل 4

المحاولة الثانية

كان المشهد الذى رأيته مفزعًا كأنه حلم داخل حلم .. كانت الغرفة كما كانت إلا أن الظلال اختفت وسط عديد من الأضواء ..

جوار الفراش الفارغ تجلس الممرضة كما رأيتها آخر مرة ، وتلك الوسادة خلف ظهرها لتبقيه مستقيمًا لكن عنقها متصلب كأنها فى نوبة صرعية .. لم يكن هناك تعبير على وجهها .. لا رعب .. لا شىء .. كانت مجرد وجود سلبى يتنفس لكنها لا تعى شيئًا من العالم حولها ..

كانت الملاءات مبعثرة كأن جسد النائم قد جرّ من فوقها ، وعلى الأرض بعض الضمادات التى ضمد بها الطبيب الذراع .. كلها موجودة فى ذات الموضع الذى وجدناه أمس جوار الخزانة .. لكن هناك شيئًا مخيفًا جديدًا ..

ثمة محاولة لقطع الذراع عند المعصم لأخذ ذلك السوار .. هناك سكين (كوكرى) من ذلك الطراز الذى يحارب به رجال القبائل (الجوركاس) فى جبال الهند .. لابد أنها انتزعت حيث كانت معلقة على الجدار .. لكن عملية القطع توقفت فلم يتمزق الذراع لكن اللحم تمزق ، وكان الدم ينزف بغزارة ..

جوار الأب كانت مس (تريلونى) تجثو وقد غرقت ثيابها فى الدم .. ووسط الغرفة كان الرقيب (دو) يعيد حشو مسدسه .. كانت عيناه حمراوين ثقيلتين ، وبدا شبه واع لما يدور حوله ..

وفى كل مكان كان الخدم يحملون الأضواء ..

ما إن دنوت من مس (تريلونى) حتى صرخت ووقفت تشير لى .. الآن أفهم أننى بدوت مرعبًا بجهاز التنفس على وجهى وشعرى منتثر وفى هذه الإضاءة ..

تنبهنا أخيرًا فوجدنا مهمتنا الأولى هى أن نوقف الدم المتدفق من ذراع الأب .. وبرغم خطورة الأمر فقد سرنى لأنه دلنى على أن الرجل حى ..

لم يمر درس أمس دون جدوى ، وسرعان ما كنا نلف رباطًا ضاغطًا حول ذراع الرجل بينما هرع خادم ليحضر الطبيب .. فلما اطمأننا إلى حال الرجل أولينا انتباهنا للممرضة ..

كانت مسز (جرانت) قد أخذت سيدتها لتبدل ثيابها وتغسل يديها .. وحينما عادت لنا مس (تريلونى) كانت أهدأ .. لكنها وجهت لى الكلام على الفور :

ـ « كنت نائمًا بينما أبى فى خطر ! حسبتك ساهرًا تراقب .. »

شعرت فى لومها عدالة تؤلم ..

قلت لها :

ـ « هناك شىء ما أكثر من مجرد النعاس فى هذه الحجرة .. ولربما لو لم أتخذ الحيطة لصرت مثل الممرضة هنا .. »

نظرت إلى الممرضة ، ثم قالت :

ـ « سامحنى .. إنه الخوف والتوتر فلم أقصد أن أكون فظة .. إننى خائفة مما قد يحدث فى كل لحظة .. »

ـ « لا تعتذرى .. أنا كنت مكلفًا بالحراسة ونمت .. لا شك فى هذا .. لكن أقول بوضوح إننى لم أتعمد ذلك وقاومته .. ربما نفهم السبب فيما بعد .. ولكن أود لو فهمت ما مر بك »

قالت :

ـ « نفس الشىء تقريبًا .. صحوت من نومى شاعرة أن أبى فى خطر .. جريت إلى حجرته وكانت مظلمة .. ثم استطعت أن أراه على الأرض جوار الخزانة .. لابد أننى فقدت صوابى للحظات .. »

هنا نظرت إلى الرقيب الذى كان يعبث فى مسدسه بذهن مشتت :

ـ « وأنت أيها الرقيب .. ما الذى أطلقت الرصاص عليه ؟ »

نظر حوله ، ثم قال :

ـ « ألا ترى أنه من الأفضل أن ينصرف الخدم لعملهم ؟ سيكون هذا أفضل للكلام .. »

أشرت للخدم كى ينصرفوا .. فلما رحل آخرهم واصل الرقيب الكلام :

ـ « دخلت للنوم والمسدس تحت وسادتى .. وأعتقد أننى صحوت على صرخة .. كان رأسى مثقلاً بفعل الإرهاق .. هرعت للحجرة فكانت مظلمة ما عدا الضوء القادم من الخارج عبر النافذة .. كانت مس (تريلونى) على الأرض جوار أبيها وهى تصرخ .. هنا بين المنام واليقظة خيل لى أن شيئًا يتحرك بينى والنافذة .. ومن دون تفكير أطلقت الرصاص مرتين على الشىء .. »

ـ « وما هو هذا الشىء ؟ »

كنت أشعر بألفة فى الموقف كأننى أستجوب شهود المحكمة ..

ـ « لا أعرف .. شعرت بوجود شىء لكن ليست عندى أدنى فكرة عن كنهه .. »

رحت أبحث عن الرصاصتين فى الغرفة فى اتجاه الإطلاق .. واحدة منهما هشمت زجاج خزانة فيها بعض تلك التحف الغريبة ، ومن الزجاج المهشم انبعثت تلك الرائحة العطرية كأقوى ما يكون .. هذا هو مصدرها إذن .. لاحظت أن التحف متراصة فى شكل دائرى حول تمثال يمثل إلهًا له رأس صقر ، لكن الظروف لم تسمح لى بالتدقيق أكثر ..

أزحت الستائر فأثار دهشتى أن ضوء الفجر الخافت تسلل ليغمر الغرفة .. من الصعب أن أصف كم بدت الحجرة مخيفة فى هذا الضوء الشاحب الرمادى .. إن النافذة شمالية لذا لم يدخل إلا اللون الرمادى دون لمسة اللون الوردى التى لا تراها إلا تجاه الشرق .. لا شىء من نعومة الليل ولا من نضارة النهار ..

جاء الطبيب ولم يسأل عن شىء إذ رأى وجوهنا .. انكب على الجرح وقد ارتسمت علامات الخطورة على وجهه .. لم يتكلم إلا بعد ما تم تضميد الجرح .. سأل :

ـ « ماذا عن الممرضة (كنيدى) ؟ »

ـ « لا أدرى .. وجدتها على هذا الوضع فى الثانية صباحًا عندما دخلت الغرفة ، ومنذ ذلك الحين لم نحركها .. حتى طلقات مسدس الرقيب لم توقظها ..»

فكر قليلاً ، ثم قال :

ـ « أرى أن تنقل الممرضة لغرفة أخرى .. »

أصدرت مس (تريلونى) تعليماتها لمسز (جرانت) كى تعد غرفة مناسبة وتستدعى رجلين يحملان الممرضة ..

عاد الطبيب بعد فحص المريضة ليقول إنه يرى أن هذه الغيبوبة شبيهة بغيبوبة الأب .. لكن الممرضة تتحسن

واستجابتها تزداد ، وقد قل تخشُّب عضلاتها .. ومن المرجح أن تفيق ..

ـ « وكيف .. » ـ سألته ـ « لا نجد تخشبًا لدى المستر (تريلونى) ؟ »

ـ « لا أعرف السبب .. إن الحالة محيرة وسوف نحتاج إلى أيام حتى نفهم ما حدث فعلاً .. »

كان يومًا طويلاً مرهقًا ..

لكن حالة مس (كنيدى) تتحسن باستمرار ، وقد بدت أقرب للنوم منها إلى الغيبوبة .. وقد جاء الطبيب بممرضتين واحدة لتعنى بمس (كنيدى) والأخرى لتعنى بمستر (تريلونى) ..

رتبنا نظامًا محكمًا للسهر ، بحيث يكون هناك من يراقب المراقبين ، وهكذا لا يتسلل النعاس إلى أحدهم من دون علم الآخرين .. طلب د . (ونشستر) أن يبتاع جهاز استنشاق كالذى استعملته أمس وكذا مس (جرانت) ..

وجاء الليل .. جاء ونحن فى غاية التوتر والتوجس ..

الفصل 5

تعليمات أكثر غرابة

فى الحادية عشرة والنصف خرجت من غرفتى لأجد كل شىء على ما يـرام فى غرفـة المريض .. الممرضـة تجلس جوار الفراش والطبيب على الأريكة متنبهًا ، وإن بدا مضحكًا بجهاز الاستنشاق على وجهه .. فلما رآنى نهض ، وقال إنه سيعود فى الصباح ..

جاء الرقيـب ليأخذ المقعد الذى كان يحتله الطبيب ، وظلت مهمتى أنا أن ألقى نظرة على الغرفة من حين لآخر . فى الثانيـة عشرة جاءت مس (تريلونى) وجهاز الاستنشاق فى يدها لتسلم مهمة المراقبة وكذا فعلت أنا بينما نهض الرقيب والممرضة ..

لم يغلبنى النعاس قط ، وكذا ظلت مس (تريلونى) متيقظة ..

دقت الساعة معلنة الثانية صباحًا ، هنا دهمنى شعور غريب .. استطعت أن أرى من حركة مس (تريلونـى) أنها تشعر بشىء غريب بدورها .. بدأ قلبى يدق بعنف .. وشعرت بخوف .. كأن هناك من دخل الغرفة معنا ، وكأن هناك ذكاء ما بقربى ..

ثمة شىء يخدش ساقى . مددت يدى لأصطدم بفراء (سيلفيو) .. أطلق فحيحًا وخدش يدى .. شعرت بالدم يسيل على يدى فنهضت .. مس (تريلونى) أيضًا نهضت .. كان صدرها يعلو ويهبط

فى انفعال .. وحينما لمستها لم يبد أنها لاحظتنى .. كانت يداها ممتدتين أمامها كأنما تدفع خطرًا ..

لم يكن هناك وقت أضيعه .. أخذتها تحت ذراعى وركضت إلى الردهة صارخًا :

ـ « النجدة ! »

عل الفور ظهر المخبران والخدم ومسز (جرانت) .. وضعت مس (تريلونى) بين ذراعى هذه الأخيرة وعدت للغرفة .. أضأت النور الكهربى وكان هذا هو الوقت المناسب ، فجوار الخزانة حيث وجدناه فى الليلتين السابقتين كان مستر (تريلونى) وذراعه المضمدة مكشوفة ..

جواره كانت مدية فرعونية تشبه ورقة الشجر .. وكانت مغروسة فى الأرض حيث كانت السجادة الملوثة بالدماء فيما سبق ..

فتشت أنا والرقيب (دو) الغرفة فلم نجد ما يريب ، بينما تعاون الخدم على إعادة المريض إلى الفراش .. عادت مس (تريلونى) لتهمس لى :

ـ « شعرت بأننى على وشك فقدان الوعى .. لا أعرف السبب لكنى كنت مذعورة .. »

ثم نظرت ليدى ، وهتفت :

ـ « لكنك جريح ! »

حقًا كنت قد نسيت الخدش الذى أحدثه القط فى يدى .. وسمعتها تقول :

ـ « لكنها ذات الجروح التى فى ذراع أبى ! »

ثم نظرت إلى أبيها وعقدت جبينها ، وقالت :

ـ « ألا ترى أن نطلب (كونسلتو) ؟ د . (ونشستر) بارع ذكى لكنه حديث السن ، ومن الواضح أن حالة أبى تحيره .. لربما كان هناك أناس قد درسوا الموضوع بشكل أعمق .. »

هنا وصل د . (ونشستر) .. وسألنى عما حدث بالضبط فحكيت له كل تفصيل .. هنا التفت إلى مس (تريلونى) ، وقال :

ـ « أرى أن نطلب مشورة أطباء آخرين .. »

كان هذا ما ترغب فيه ؛ لذا وافقت على الفور مما أثار دهشته .. ثم سألته :

ـ « هل تقترح اسمًا معينًا ؟ من أكفأ طبيب فى لندن لهذه المهمة ؟ »

ـ « ليس فى لندن بالضرورة .. إن طبيب المخ يولد طبيب مخ ولا يمكن أن تصنعيه .. بعد هذا يحسن موهبته بالدراسة .. أفضل طبيب أعرفه حاليًا هو (شيونى) اليابانى لكنه جراح ..

هناك (تسامرفست) و(فنلو) من باريس .. لكنى أفضل طبيبًا اسمه (فرير) من (كنجز كولدج) هو من أفضل من عرفت وأقدرهم على مزج النظرية بالعمل .. ومن المؤسف أنه سيفقد براعته مع تقدمه فى العمر .. »

ـ « إذن علينا به فى الصباح .. هل هو (سيد) أم (دكتور) ؟ »

ـ « لندعه سير (جيمس فرير) . سوف أذهب له بنفسى صباحًا .. »

ثم نظر ليدى ، وقال :

ـ « لربما كان علىّ أن أضمد يدك .. إن جروح الحيوان قد تكون خطرة .. »

وراح يتفحص يدى بعدسة مكبرة ويقارنها بقطعة النشاف التى تحمل مخالب (سيلفيو) ..

فى العاشرة صباحًا استعادت الممرضة (كنيدى) قواها وصار بوسعها أن تجلس وتتكلم .. لكن ذاكرتها ظلت مختلطة بصدد ما حدث البارحة ..

فى الحادية عشرة جاء سير (جيمس فرير) .. كان رجلاً يجلب الاحترام والانتباه ..

كانت عيناه الخارقتان وفمه الملىء بالتصميم وحاجباه العظيمان أشياء تفرض الطاعة على الفور ..

دخل حجرة المريض فقضى وقتًا طويلاً هناك ، ثم فحص المرضة (كنيدى) .. بعد هذا انفرد بالطبيب فى غرفة المكتب وتعالى صوت الرجلين فى مناقشة حامية ..

بعد قليل خرجا .. وجه سير (جيمس) لا يدل على شىء كأنه وجه أبى الهول .. يتبعه د . (ونشستر) شاحب الوجه ..

كان سير (جيمس) موافقًا على أسلوب د . (ونشستر) فى العلاج ، لكنه طلب بإلحاح أن ينقل المريض من الحجرة أو تنقل المومياوات خارجها ؛ لأن هذه بيئة غير صحية .. حتى لو كانت هذه رغبة المريض ذاته .. من العسير أن نحيط المريض بهذه الأشياء الشنيعة ويتنفس الهواء المنبعث منها .. لقد رأينا تأثير هذه الرائحة على أعصاب الناس ..

ـ « أنا أصرُّ على هذا الشرط ولن أعود إلى هنا ما لم يتم تحقيق مطلبى .. لم يأت بعد اليوم ـ كما أتمنى ـ الذى يتبادل فيه المتحف البريطانى ومستشفى سانت توماس مكانيهما .. شكرًا لكم وأرجو أن تنفذوا ما طلبت .. »

لما تلاشى صوت حوافر خيول عربته قال د . (ونشستر) :

ـ « أنا موافق تمامًا على ما قال .. لكنك أدرى بظروف أبيك ومدى أهمية ما طلبه منك .. »

قالت مس (تريلونى) :

ـ « سوف أكتب خطابًا لمستر (مارفين) المحامى أسأله إن كان بوسعى عدم تنفيذ مطلب أبى .. »

هكذا كتبت الخطاب وأرسلته .. ومرت ساعة من الزمن ، إلى أن وصل مستر (مارفين) المحامى إلى الدار ..

لم يكن راغبًا فى فتح الموضوع أمامى ، لكنها قالت له فى تصميم :

ـ « مستر (روس) يعرف عن الموضوع قدر ما أعرفه أنا .. إنه صديق جديد لكنى أريده أن يكون على علم بكل التفاصيل .. »

قال المحامى :

ـ « تعليمات المستر (تريلونى) واضحة .. ممنوع نقله من الغرفة ما دام حيًا وممنوع نقل أى شىء من محتوياتها .. التعليمات قوية ولا يمكن أن تجد فيها ثغرات .. دعينى أؤكد لك أننى لم أر وصية بهذا الوضوح من قبل ، وحتى أنا لا أقدر على التساهل فى بعض فقراتها .. آمل أن تفهمى هذا وتفهمى أننى أرغب فى عمل أى شىء فى مقدورى ... إن أباك لديه أسبابه التى لم يكشفها لى .. آسف أن أضايقك لكن لا مفر من هذا .. سأكتب لك عنوان بيتى وعنوان النادى حيث أتواجد ليلاً .. يمكنك طلبى فى أى وقت .. »

وصافحنا وانصرف ..

هنا دخلت مس (جرانت) الغرفة وقد بدا القلق على وجهها ، وقالت :

ـ « يؤسفنى أن أقول يا آنسة إن الخدم ـ كلهم ما عدا اثنين ـ يريدون ترك المنزل اليوم .. وقد ناقشهم رئيس الخدم فى الأمر ، وهم يريدون أن يسووا الحساب اليوم حتى لو تنازلوا عن بعضه .. المهم أنهم يريدون الرحيل اليوم .. »

ـ « ما السبب ؟ »

ـ « لا سبب يا آنسة .. لكن الخادمة المسئولة عن الطابق العلوى تقول إنهم يعتقدون أن البيت مسكون .. »

كان الأحرى أن نضحك لكننا لم نفعل .. بدا لى كأن أفكارى صار لها صوت .. لكن لم يكن هذا كل شىء .. كانت هناك خاطرة أكثر سوادًا وجهامة تريد الإفصاح عن نفسها لكنها لا تستطيع ..

الفصل 6

خسارة المسافر

استعادت مس (تريلونى) روعها بسرعة فقالت للمسز (جرانت) :

ـ « ليكن .. دعيهم يرحلوا .. لقد كانوا خدمًا مخلصين وسبب رحيلهم ليس معتادًا .. أما من سيبقون فادفعى لهم ضعف راتبهم .. »

كانت مديرة البيت متضايقة من الطريقة المهينة التى يقدم بها الخدم إنذارهم .. وقد شعرت بأن هذا غير عادل بعد المعاملة الطيبة التى يلقونها هنا ..

قالت مس (تريلونى) :

ـ « لن نبحث عن خدم آخرين .. لن يزورنا أحد فى فترة مرض أبى هذه ؛ لذا يمكننا أن نعيش مع عدد الخدم الباقين .. فليبق ثلاثة فقط .. ولتعلمى أننى ـ برغم أننى لا أعتبرك من الخدم على الإطلاق ـ سأدفع لك ضعف الراتب كالآخرين .. »

غادرت المرأة المكان ، وسمعتها تهمس وهى تنصرف :

ـ « لا عجب أن يكون البيت كقصر الملك إن كانت سيدته أميرة ! »

أميرة ! نعم .. هذه الفكرة راقت لى وتذكرت كيف رأيتها أول مرة فى ذلك الحفل الراقص فى ميدان (بيلجريف) .. ملكة .. فارعة الطول نحيلة تتمايل وتتموج كالسوسن أو اللوتس . شعرت بالرهبة والهيبة تجاهها فلم أدرك كم هى ظريفة طلقة الطباع إلا عندما جمعنا ذلك القارب فى النهر .

★ ★ ★

مرت الليلة بخير .. لم تنضم لنا مس (تريلونى) فى السهر لأن جهازها العصبى صار فى قمة الإرهاق وكانت فى حاجة إلى نعاس عميق بعيدًا عن هذه الأحداث ..

لم يتحرك المريض طيلة الليل ، ولولا تنفسه وارتفاع صدره لحسبته قُدَّ من رخام ..

وفى الثامنة صباحًا لحقت بنا مس (تريلونى) وقد أعاد لها النوم نضارتها .. عاد نوع من اللون إلى خديها اللذين كانا شاحبين بشكل مفزع يتناقض مع حاجبيها الأسودين وشفتيها الحمراوين .. أصلحت الوسادة تحت رأس أبيها برقة حركت مشاعرى ..

نمت نومًا طيبًا وتناولت طعام الغداء ..

استوقفنى صوت رجل لحوح مزعج يتكلم مع خادم اسمه (موريس) على الباب .. كان (موريس) خادمًا عاديًا ثم ترقى بعد رحيل الآخرين إلى رئيس خدم ..

بصعوبة استطعت تمييز ما يقول الرجل لأنه كان يتكلم بصوت عال واندفاع :

ـ « أقول لك إنه يجب أن أرى مستر (تريلونى) .. ما جدوى أن تقول إننى لا أستطيع ؟ جئتك فى التاسعة والثانية عشرة والثالثة وفى كل مرة تقول لى إنه فى الفراش وإنه لا يقابل أحدًا .. دعنى ألق مس (تريلونى) إذن .. »

ـ « لا أستطيع أن أزعجها .. »

ـ « بل لابد أن تزعجها .. لابد من أن تزعج أحدًا .. لقد تحملت الكثير من الخدم الذين لا يملكون سوى كلمة (لا) .. زرت بيوتًا بدا لى أن دخول القبور أسهل من دخولها ، وبدا لى أن سكانها موتى كسكان القبور .. لم أعد أتحمل أكثر .. فهل ترك مستر (تريلونى) تعليمات واضحة بعدم السماح لى بالدخول ؟ »

أجاب الخادم فى تهذيب :

ـ « آسف سيدى .. إن لدى أوامرى وعلى أن أنفذها .. ربما لو رأيت أن تترك رسالة لمس (تريلونى) .. »

كانت الإجابة أكثر هدوءًا :

ـ « أيها الرجل الطيب . لا مشكلة لى معك شخصيًا .. لكن الوقت ضيق ولا يمكن أن أضيع دقيقة .. وأعرف أن سيدك

سيكون غاضبًا أكثر منى مائة مرة لو عرف سر هذا التأخير .. رباه ! ألا يوجد شخص عاقل أكلمه فى هذا البيت ؟ أو شخص ذو سلطة إن لم يكن عاقلاً ؟ »

هكذا لم يعد هناك شك فى صدق الرجل ولهفته .. هكذا قلت للخادم :

ـ « أخبر مس (تريلونى) أن هناك رجلاً يريد رؤيتها بالحاح .. »

سألنى الرجل وأنا أقتاده إلى المدخل :

ـ « شكرًا لك .. هل أنت السكرتير ؟ »

ـ « لا .. أنا صديق الأسرة .. »

ـ « لك الشكر إذن .. اسمى هو (كوربك) .. وددت لو أعطيتك بطاقة لكنهم لا يستعملون البطاقات من حيث جئت »

كان رجلاً قصير القامة ممتلئًا .. تجعد جلده بشدة مما دلنى على أنه كان بدينًا ثم فقد الكثير من اللحم والشحم .. لونه يوحى بالشمس .. ربما فى المناطق الحارة أو الشرق الأقصى .. وفكرت فى أنه رجل مناسب للصحراء ..

جاءت مس (تريلونى) فلاحظت أنه دهش كثيرًا وإن تماسك .. قررت فيما بينى وبين نفسى أن أعرف فيما بعد سبب هذه الدهشة ..

قالت مس (تريلونى) للرجل :

ـ « أعتقد أنك لا تملك فكرة عن مدى خطورة حالة أبى .. إنه فى غيبوبة منذ ثلاثة أيام ، وأنا لا أعرف إلا القليل عنه لأننى جئت هنا لأقيم معه منذ عام .. يمكنك الكلام أمام مستر (بروس) فأنا أعطيه كامل ثقتى .. »

بدأ الرجل يتكلم فى تردد .. قال :

ـ « اسمى (يوجين كوربك) .. ماجستير فى الفنون ودكتوراه فى القانون ودكتوراه أخرى فى الجراحة من كمبريدج .. دكتوراه لغات من جامعة لندن .. دكتوراه لغات شرقية من باريس .. فى بداية حياتى وقعت فى حب علم المصريات .. لابد أن جعرانًا قد لدغنى لأننى رحت أنزل المقابر الفرعونية وتعلمت الكثير .. قابلت أباك الذى كان يجرى بعض الأبحاث ومن حينها لم يبق لى الكثير لأتمناه .. ما من عالم مصريات مجنون يتمنى رئيسًا أفضل من أبيك !

« قمت بحملات عديدة فى مصر من أجل أبيك .. وأغلب ما لديه من تحف حصل عليه عن طريقى .. ولكن هل أنت واثقة من أنه لا يقدر على مقابلتى فعلا ؟ »

نهضت ، وقالت فى كبرياء :

ـ « تعال لترى بنفسك .. »

تبعها الرجل إلى غرفة المريض وأنا خلفهما .. كان المستر (تريلونى) فى الفراش بملامحه القوية الآمرة .. ما كان المنظر ليوحى باليأس لهذا الحد لو كان وجهًا عاديًا ، لكن رؤية هذا الرجل المسيطر قوى الشخصية عاجزًا كانت توحى بالخراب العظيم ..

ادلهم وجه مستر (كوربك) وبدا عليه الضيق .. ثم استحالت نظرته إلى نظرة تصميم ، وأشار بعينه للممرضة مس (كنيدى) التى نظرت لسيدتها متسائلة ثم غادرت المكان وأوصدت الباب وراءها ..

قال لنا :

ـ « أريد معرفة القصة كاملة .. كيف بدأت ومتى ؟ »

حكيت له ما أعرفه .. لم يتحرك أثناء سماع القصة لكن بمعجزة تحول وجهه البرونزى إلى صلب .. وقال عندما انتهيت :

ـ « مستر (تريلونى) كان يعرف ما يفعله وقد أعد لكل شىء عدته »

قلت :

ـ « ليس تمامًا .. هناك نقطة ضعف فى خطته وإلا لما رقد أمامنا الآن .. »

سألته مس (تريلونى) :

ـ « هل لديك تفسير لما حدث ؟ وما سببه ؟ »

قال على الفور :

ـ « لا .. لا أعرف لكنى أخمن .. صدقينى سأفعل أى شىء بوسعى كى أساعدك ، لكنى فى هذه الحالة أواجه واجبًا أكبر »

ـ « أى واجب ؟ »

ـ « الصمت ! »

وانغلق فمه كأنه مصيدة من الصلب ..

ساد الصمت من جديد حتى قطعته مس (تريلونى) قائلة :

ـ « ما الشىء الملح الذى جئت من أجله وطلبت مقابلتى ما دمت لم تلق أبى ؟ »

ضرب المقعد الذى كان يستند إليه ، وصاح :

ـ « رباه ! لقد نسيت كل شىء .. رأيته فنسيت مهمتى .. لكنى عاجز الآن عن طلب معونته ورأيه ، بينما الوقت يفلت من بين أيدينا .. ليس بوسعى أن أخبرك كل شىء ، لكنى قد خسرت الكثير .. مهمتى التى استمرت ثلاثة أعوام كانت ناجحة .. وجدت ما بحثت عنه وعدت به للوطن .. وجدت كنوزًا عظيمة

القيمة ، ووصلت إلى لندن أمس .. لكن عندما صحوت هذا الصباح وجدت أننى سرقت .. سرقت بطريقة غامضة فما من أحد فى لندن يعرف ما أحمله .. غرفتى كان لها باب واحد أحكمت غلقه .. غرفتى كانت فى الطابق الخامس وما كان بوسع أحد دخولها من النافذة .. وبرغم هذا وجدت حقيبتى فارغة هذا الصباح .. ولت المصابيح التى ذهبت إلى مصر للتنقيب عنها .. بحثت .. تعبت .. والآن .. »

وبدا أنه موشك على الانهيار .. ثم أضاف :

ـ « واحد من المصابيح من ذهب .. أخشى أن يدمره اللص لأنه لا يعرف قيمته .. أخشى أن يذيبه »

قالت مس (تريلونى) فى ثقة أدهشتنى :

ـ « لا تخف .. لن يدمرها أحد ! »

ـ « وكيف تعرفين ؟ »

ـ « لا أعرف كيف عرفت .. فقط أعرف ذلك ! كأنه يقين فى دمى طيلة حياتى ! »

الفصل 7

العثور على المصابيح

بشكل غير رسمى أخبرت الرقيب (دو) ببعض قصة هذا المسافر ، والسبب أن الرجل كان يرغب فى إبقائها سرًا .. ولذات السبب قال لى (دو) إن رأيه مجرد رأى عام لأنه لو أردنا اتخاذ إجراءات رسمية فلابد من إبلاغ سكوتلانديارد .

وقد استجوب الرقيب المسافر ، فلم يعطه الأخير إلا أقل التفاصيل ببراعة لابد أنه تعلمها من بازارات الشرق ..

سأله الرقيب :

ـ « السؤال هو .. هل من سرق هذه الأشياء يعرف قيمتها أم سيقوم بصهرها ؟ »

ـ « أى شخص له رأس على كتفيه سوف يعرف قيمة هذه الأشياء العالية .. »

ـ « إذن لنا أن نفترض أن من قام بهذا ليس مجرد خادمة فندق .. هذا شخص يعرف ما يريد .. لكنك سوف تندهش عندما تعرف السهولة التى تمت بها السرقة عندما نكشفها ! »

قال (كوربك) فى حرارة وعصبية :

ـ « اصغ هنا يا صديقى الطيب .. ليس هناك شىء سهل فى هذه السرقة .. النوافذ كانت مغلقة والباب موصدًا بالمزلاج .. لم أغادر الغرفة ليلاً .. . وكان آخر ما قمت به قبل النوم هو التأكد من كنزى . لو أنك وجدت سرقة بسيطة فى هذا فأنت رجل بارع فعلاً .. رجل قادر على إعادة ما سرق منى »

تقرر أن يقضى المستر (كوربك) بضعة أيام معنا ، وقضينا باقى اليوم نفحص محتويات البيت ، وقد اكتسبت القصة ضوءًا جديدًا بعد ما حكاه لنا مستر (كوربك) .. الآن فقط فهمت أى كنز يحويه هذا البيت .. وقد تناثرت فيه المومياوات وقطع النحت وأكثر من جعران .. فى غرفة النوم .. فى المكتب .. على الدرج ..

قالت لى (مارجريت) فى سذاجة :

ـ « لن تصدق أننى لم أنظر قط لهذه الآثار باهتمام من قبل .. أخذتها كقضية مسلمة .. اليوم أشعر باهتمام عميق يشدنى لها .. ربما هو دم المستكشف الذى أخذته من أبى قد بدأ يعلن عن نفسه .. »

هكذا قضينا اليوم نستكشف الآثار وقررنا أن نفحصها بشكل مسلسل دقيق .. لم تكن (مارجريت) بالسذاجة التى تعتقدها فى نفسها .. إن العام الذى قضته مع أبيها جعلها تعرف الكثير عن هذه الكنوز ..

على أن أهم التوابيت كانت تلك الثلاثة فى غرفة مستر (تريلونى) .. . اثنان كانا من حجر أسود من الرخام النارى .. الثالث كان مختلفًا .. كان له لون العقيق اليمانى البنى المصفر .. وهنا وهناك بقع شبه شفافة .. وعلى التابوت آلاف النقوش الهيروغليفية بلون أزرق غامق .. كان ذا منحنيات ناعمة جميلة ، وطوله حوالى عشر أقدام ..

ـ « لابد أن هذا التابوت مخصص لعملاق ! »

قالت :

ـ « أو لعملاقة ! »

ثم أضافت :

ـ « لم يرغب أبى قط فى الكلام عن هذا التابوت .. لقد شد انتباهى من البداية .. سألته فقال إنه سيخبرنى بالقصة يومًا ما ولسوف تكون قصة ممتعة .. لو عشت .. لو عشت ! شعرت بذعر لتكراره لفظة الموت وقررت ألا أسأله ثانية .. »

كان كلامها قد ألقى على اللغز ضوءين جديدين .. الأول هو أن مستر (تريلونى) ربط بين موته وذلك الأثر .. الثانى هو أنه كان يتوقع شيئًا بصدده لم يجرؤ على التصريح به حتى لابنته ..

جوار التابوت كانت هناك منضدة رائعة الجمال عليها علبة تتركب من رقائق من الصخر البلورى ، وسط أحزمة من الذهب الأحمر .. ربما بدت العلبة من طراز عصرى لكن ما حوته كان العكس .. بداخلها كانت وسادة من قماش ذهبى ترتكز عليها يد مومياء .. يد امرأة هى .. طويلة دقيقة فى حالة ممتازة كحالتها عندما أمسك بها المحنط منذ آلاف السنين ..

كان الجلد بلون العاج .. أما الملفت للنظر فهو أن بها سبعة أصابع .. أعلى المعصم مشرشر كأنما تم بترها ، وقد تم تلوين هذا الموضع بلون أحمر غامق .. كما كان بجوارها جعران من الزمرد ..

ـ « كانت هذه من أسرار أبى المهمة .. سألته عنها فوعد بأن يشرح لى كل شىء فيما بعد .. لو عاش ! »

كانت حجرتها من طراز حديث يختلف عن باقى أثاث البيت .. الواقع أن الرجل لم يشأ أن تنام ابنته فى جو الموت والمومياوات المخيم على البيت .. هناك وجدت ذلك الكومود العتيق من طراز (نابليون) .. مددت يدى أتحسس الدرج فسمعت صوتًا كأنه معدن يضرب معدنًا .. سألتها عن معنى هذا فقالت إنها لا تدرى ..

ـ « ربما هم الخدم يستعملون هذا الدرج .. لا أرى بأسًا من فتحه . »

انحنينا على الدرج وفتحناه وألقينا نظرة .. كان قلبى يدق كالمطرقة .. خشينا أن نمس شيئًا .. لكننا استطعنا أن نرى المصابيح الموجودة فى الدرج بوضوح تام ! وللحظة خشينا أن نفكر فى أى شىء ..

فى هذه اللحظة ظهر مستر (كوربك) مع المفتش على باب المخدع ، فلما رآنا دخل من دون حذر ، وهو يصيح :

ـ « لقد استرددت متاعى يا مس (تريلونى) .. كل شىء هنا ما عدا المصابيح طبعًا .. المصابيح التى ... ... »

ثم توقفت عيناه على الدرج المفتوح ..

أطلق صيحة دهشة وسرور .. وانحنى يتفحص هذه الأشياء .. راح يلهث وهو يحملها فى يده مصباحًا مصباحًا كأنما هى حبيبته .. والصوت المنبعث منه كان أقرب لقط يقر ..

أطلق الرقيب تنهيدة عالية ، فنظرت له ..

رأيته يحدق فى مس (تريلونى) التى كان ظهرها لنا ..

الفصل 8

الحاجة إلى المعرفة

قال الرقيب (دو) في هدوء ، وصوته يخرق الصمت كأنه لحن نشاز في معزوفة :

ـ « هل أنت واثق من أن هذه هي المصابيح التي سرقت منك ؟ »

قال الرجل في ثقة :

ـ « بالتأكيد ! لا يمكن أن توجد مصابيح كهذه في العالم كله ! »

ـ « ومن أدراك أن هذه المصابيح ليست فريدة ؟ ربما هناك نسخة منها في المتحف المصري أو كانت عند مستر (تريلوني) ؟ لا جديد تحت الشمس كما تعرف .. ربما كانت هذه هي الأصلية والتي كانت عندك مزيفة .. هل لديك علامة تؤكد ؟ »

هنا ثار غضب مستر (كوربك) ونسي تحفظه وانفجر في حشد من الجمل غير المترابطة :

ـ « نسخ ؟ متحف بريطاني ؟ كلام فارغ ! لقد ضممتها إلى صدري ثلاثة أشهر في الصحراء وكنت أكلمها قبل النوم وحين اليقظة .. أمضيت ساعات أفحصها بعدسة مكبرة .. حفظت كل

نقش وكل حفر عليها .. (كا) تقف بين رع وأوزيريس في قارب الموتى حاملة عين النوم ! هل رأيت هذا المشهد في أي مكان ؟ »

ثم بدأ يهدأ ، فقال :

ـ « أرجو أن تغفر لي ثورتي .. »

قال الرقيب :

ـ « بالعكس .. أنا أحب أن أرى الناس غاضبين من كلامي .. فقط عندما يغضب الناس تعرف الحقيقة .. لقد أعطيتني تفاصيل عن هذه المصابيح في الدقيقة الأخيرة تفوق كل ما قلته لي من قبل .. »

نظر مستر (كوربك) لي ، وسأل في مرح :

ـ « كيف استرددتما هذه المصابيح ؟ »

قلت في ارتباك :

ـ « لم نستردها ! »

ـ « كيف ؟ لقد كنتما تقفان تحملقان فيها .. »

ـ « هذا ما حدث فعلاً .. وجدناها !! وأقترح أن نسأل الخدم لمعرفة كيف جاءت هنا . »

استجوبنا الخدم واحداً بعد الآخر عن شيء وضعوه في درج المخدع ، لكن لم تكن لدى أحدهم أدنى فكرة عما نتكلم عنه ..

على كل حال وضعنا المصابيح فى خزانة لها مفتاحان .. مفتاح صار معى والآخر أخفيته فى درج خاص بى ..

عندما انتهت هذه الأحداث وصل د . (ونشستر) ومعه صندوق فتحه أمامنا فوجدنا به مومياء قط .. كانت هذه هى التجربة التى أراد أن يجريها من قبل على القط (سيلفيو) ..

لقد تم استبدال هذه المومياء الحديثة بالمومياء الفرعونية ثم جلبنا (سيلفيو) ..

كانت المفاجأة هى أن القط لم يبد أدنى اهتمام بالمومياء الجديدة .. قال الطبيب فى لهجة انتصار :

ـ « توقعت هذا ! »

سألته مس (تريلونى) :

ـ « وما معناه ؟ »

لم نجد تفسيرًا ، لكن الرقيب كان رأيه أن الحادث تافه .. لكن ما عنده لم ينته عند هذا الحد ..

لقد دق باب غرفتى فى المساء ليفضى لى بشكوكه .. المصابيح موجودة فى مكان تستطيع مس (تريلونى) الوصول له فى أى وقت .. لقد سمع نافذة تفتح فى الطابق الأرضى أمس .. مس

(تريلونى) كانت موجودة فى كل حوادث الاعتداء التى شهدناها من قبل .. إنها موجودة دائمًا فى كل مرة ..

كنت أصغى له وأنا أشعر بدرجة عالية من التوجس والخوف .. كنت أعرف أننى غارق فى حبها الآن .. أردت أن أعبر عن شكوكى لكنى فى الوقت ذاته كنت أرفضها بقوة ..

كانت عينا المفتش المحنك مسلطتين على وجهى طيلة الوقت .. بصعوبة قلت له :

ـ « ماذا تريد قوله ؟ »

قال :

ـ « أريد القول إن المصابيح لم تسرق على الإطلاق .. هناك من جاء بها من الفندق إلى المنزل وتم تسليمها عن طريق نافذة فى الطابق الأرضى .. ! »

شعرت براحة كبرى .. ليس هذا هو الاستنتاج الذى أخشاه ..

ـ « ومن فعل هذا ؟ »

ـ « لا أستطيع أن أحكم .. ربما مستر (كوربك) نفسه .. »

ـ « إذن أنت تعتبر الرجل نصابًا كذابًا تعاون مع مس (تريلونى) على تلفيق هذه القصة لسبب أو آخر ؟ »

ـ « تلك كلمات قاسية يا مستر (روس) .. لم أكن أحب أن أشك فى مس (تريلونى) لكنى متأكد مما أقوله بصدد مستر (كوربك) .. . لا أحب بقاءه فى البيت بكل ما فيه من كنوز .. المزية الوحيدة لهذا الوضع هو أننى سأتمكن من مراقبته .. وطبعًا لا داعى لأن أقول إن الموضع سر بينى وبينك »

الفصل 9
وادى الساحرة

أعطانى (كوربك) كتابًا من مكتبة مستر (تريلونى) عن التاريخ الفرعونى قال إنه سيساعدنى على فهم ما يحدث هنا ، وقد وضع علامات على بعض الصفحات كى لا أضطر لقراءة الكتاب كله .. لذا قررت أن آخذه معى أثناء السهر ، ووضعته على المنضدة جوار الأباجورة .. أملت الغطاء بحيث يسمح لى برؤية الغرفة والممرضة الساهرة معى ..

منذ الصفحة الأولى بدا الكتاب ذا أهمية .. فالغلاف يقول إنه طبع فى أمستردام عام 1650 .. الكتابة بالهولندية وهناك من ترجمه للإنجليزية كلمة لكلمة بشكل حرفى جعل فهم المكتوب عسيرًا .. دعك من صعوبة تبين شكل الحروف العتيقة ، لكنى مع الوقت بدأت أكتسب القدرة على تمييز المكتوب ..

كنت أقرأ ثم أرفع عينى لأتفحص الغرفة الغارقة فى الظلام والصمت ، ثم أعود إلى صفحات الكتاب ، وكان لهذا أثره فى (زغللة) عينى ..

كان مؤلف الكتاب يدعى (نيكولاس فان هيون) ، يقول إنه افتتن بمصر حتى أنه ذهب إليها وقضى أكثر عمره فى استكشاف

معابدها وقبورها .. فما إن توغلت فى الكتاب حتى رحت أرفع عينى من آن لآخر لأرى إن كانت الممرضة تحركت .. لقد بدأت أشعر بأن هناك شخصًا بقربى ..

واصلت القراءة عن مغامرة المؤلف فى منطقة تقع شرقى أسوان :

ـ « قرب المساء بلغنا واديًا يمتد شرقًا وغربًا .. كنت أرغب فى عبوره لكن الفلاحين رفضوا ذلك بإصرار لأننا لن نتمكن من العبور أبدًا قبل الليل .. ولم يقدموا سببًا لخوفهم .. فى النهاية اعترفوا أن هذا وادى الساحرة حيث لا يمكن أن يبيت أحد ليلته .. قالوا هذا ولم يعطوا تفاصيل أكثر ..

« فى الصباح تبددت مخاوفهم فحكوا أن ساحرًا أو ساحرة كان يعيش هنا منذ ملايين السنين ـ حسب كلامهم ـ وقد دفن هنا .. وإذ عبرنا الوادى لاحظت أنهم يتعمدون أن يسبقونى .. قالوا إن السبب أن ذراع الساحرة طويلة ومن الخطر أن تكون آخر واحد فى مجموعة ..

« فى نهاية الطريق وجدت جدارًا صخريًا امتلأ بالنقوش .. صممت على أن أستكشفه لكن الفلاحين كانوا عصبيين جدًا وخشيت أن أفقدهم .. بعد عبور الوادى قابلت شيخًا بدويًا يدعى (أبو صم) وهو من البدو الذين لا يؤمنون بالخرافات مثل

المصريين .. لذا صممت على أن أعود لاستكشاف هذا الجدار مع رجاله ..

« فشلت كل جهودى لتسلق الصخرة لأنها ملساء تمامًا .. كما كان من المستحيل غزوها من أعلى ؛ لذا قررت أن أتدلى بالحبال فوقها بحثًا عن فتحة مقبرة اعتقدت فى وجودها ..

« بالفعل وجدت فتحة تم سدها بحجر كبير عليه نقوش هيروغليفية .. وقد تمكنت من تحطيمها باستعمال ما معى من أدوات .. هكذا وجدت نفسى داخل قبر .. قبر لم يمس ، فيه ممر يقود لغرفة المومياء ..

« لحق بى الشيخ العربى ورجلان ، وتعاونوا على رفع غطاء التابوت الذى وجدناه .. داخل التابوت كانت مومياء امرأة ملفوفة بالشاش وقد قدرت أنها من مرتبة عالية .. فوق صدرها كانت يد غير ملفوفة بالأربطة .. وهو وضع غريب غير معتاد .. كان لون الذراع كالعاج والأظفار سليمة كأن المومياء دفنت ليلة أمس .. كانت لينة تتحرك ..

« الأغرب أن تلك اليد كانت ذات سبعة أصابع .. شعرت بقشعريرة إذ ألمس هذه اليد التى ظلت هنا آلاف السنين .. وتحت اليد ـ كأنما تحرسها ـ كانت ياقوتة كبيرة .. ياقوتة مذهلة

فى حجمها وألوانها .. الأغرب أن الضوء كان ينبعث منها من سبعة نجوم .. كأنها محبوسة بداخلها .

« كانت هناك أوعية كانوبية مما تحفظ فيها أحشاء المومياء ، وقد رأينا بعضها فأصر الرجال على إفراغها لأنهم حسبوا ما فيها كنزًا آخر ، لكن خاب سعيهم لأنها كانت مليئة بالزيت الذى سكبوا أكثره على الأرض ..

« فجأة انتابنى الذعر وقررت أن أفر الآن من المقبرة ، لأننى كنت فى الصحراء مع رجال غرباء ، ولأننى فى قبر مجهول على ارتفاع مائة قدم حيث لن يعرف أحد على أى شىء لو حدث لى مكروه ..

« غادرت المقبرة مع الشيخ على حين تأخر الرجال لسبب لا أدريه .. بعد قليل لحقوا بنا فتعثرت قدم أحدهم وسقط من أعلى ومات على الفور ..

« أغلقت المقبرة بعناية على أمل أن أرجع لها يومًا ما فى ظروف أفضل .. وفى الخارج رحبت لأول مرة بالشمس الحارقة التى بددت مخاوف وظلام ورطوبة القبر ، وأردت أن أعود لأسترد جثة المسكين الذى هلك ، لكن الشيخ أرسل اثنين من رجاله للقيام بهذه المهمة ..

« فى المساء أقمنا معسكرًا .. لحق بنا أحد الرجلين ليخبرنا أن أسد صحراء قد فتك بصاحبه .. وأنه دفن القتيل فى مكان لاتعبث به الضباع ولا بنات آوى .

« لكنى لاحظت أنه يعرض على رفاقه شيئًا ينظرون له بإعجاب وإكبار .. دنوت منهم أكثر فعرفت أن هذا الشىء هو يد المومياء التى وجدناها .. لقد وجدها فوق جثة صاحبه الذى سقط من فوق المرتفع .. لابد أن القتيل سرقها خلسة وأنا مشغول مع الشيخ .. من المؤكد أنها لم تجلب له الحظ الحسن ..

« قضيت ليلتى مؤرقًا أخشى الغدر .. فهؤلاء القوم يمكن أن يضعونى تحت رحمتهم فى أية لحظة .. خبأت الياقوتة فى يدى كى أتمكن من النوم .. وفى النهاية غلبنى النعاس ..

« صحوت على شمس الصباح فجلست ونظرت حولى .. كان المعسكر خاليًا والنار قد خمدت .. لم يعد منِ أحد حولى إلا ذلك الشيخ العربى .. كان راقدًا على ظهره ميتًا وجهه شبه أسود وعيناه تحدقان فى السماء ..

من الجلى أنه خنق لأن هناك علامات أصابع حمر على عنقه .. بالتحديد سبعة أصابع .. من الواضح أن السحر واللعنات موجودة حتى فى هذه الصحراء المفتوحة ..

« سقطت الياقوتة من يدى التى أطبقت عليها طيلة الليل ، فوق فم الجثة .. هنا خرجت دفقة دم من فم الرجل حتى بدا أن الياقوتة ستضيع .. ووجدت فى يده خنجرًا فعرفت أنه كان موشكًا على الفتك بى أثناء نومى لولا أن أنقذتنى معجزة ما ..

« استعدت الياقوتة ملوثة بالدم وفررت من هذا المكان الرهيب ، ومشيت وحدى فى الصحراء حتى وجدت بعون الله قافلة من الأعراب تعسكر جوار بئر .. وقد استرحت لديهم ..

« لا أعرف ما صار بصدد يد المومياء ولا من أخذوها .. لابد أن قبيلة صحراوية ما تستعملها كتعويذة للقوة .

« فيما بعد فحصت الياقوتة وحاولت فهم ما نقش عليها .. وقد كان ما رسم عليها هو ... »

كنت منهمكًا فى القراءة ، لكن التوتر جعلنى أشعر أكثر من مرة برؤية ظل كبير كأنه ليد فوق الصفحات .. ثم عرفت أنه ظل الغطاء المحيط بالمصباح .. لكن لا عجب فى هذا ، فلو لم أكن مخطئًا فإن ذات اليد التى وصفها (فان هوين) موجودة معى الآن فى ذات الحجرة ..

تأكدت من أن الممرضة متيقظة ، فمما يريح النفس أن تعرف أن هناك شخصًا حيًا بقربك أثناء قراءة هذه القصص ..

فجأة رأيت يدًا حقيقية فوق صفحات الكتاب .. هذه المرة لا شك فى هذا .. يدٍ أعرفها وأحببتها .. نعم .. لقد أحببت يد مس (تريلونى) حقًا ، وكانت الآن تقف جوارى .. أغلقت الكتاب فى عجلة ، فقالت :

ـ « جئت كى أبدأ سهرتى .. حسبتك قد رحت فى غيبوبة أنت الآخر .. »

قلت وأنا أدارى الكتاب :

ـ « لا مشكلة .. هذا كتاب استعرته من مكتبة أبيك وسوف أعيده .. أعرف رغبته فى أن يظل كل شىء كما هو .. »

وطلبت منها الإذن وهرعت لحجرتى كى أخفى الكتاب هناك ..

ذهبت الممرضة لتخلد للنوم فجلست وحدى مع مس (تريلونى) .. لم أكن بحاجة إلى كتاب فى وجودها .. وهذه المرة لم نتكلم قط عن المومياوات ولا البدو ولا الكهوف .. أعرف يقينًا أن يدها ليست ذات سبعة أصابع والسبب أنها تستقر الآن فى يدى ..

* * *

فى الصباح قال د . (ونشستر) إنه ذاهب إلى (إبسوتش) وطلب منى الكتاب ليطالعه فى القطار وهو ذاهب إلى هناك .

صعدت لغرفتى لأحضره لكننى لم أجده فى أى مكان .. أنا متأكد من أننى تركته على المنضدة الصغيرة هناك .. هذا غريب .. لم يكن منظر الكتاب ليجذب انتباه أى خادم لسرقته .. هكذا عدت لأخبر الآخرين باختفائه ..

قال مستر (كوربك) عندما عرف القصة :

ـ « على كل حال لا تقلق .. لا يوجد فى الكتاب ما يثير الاهتمام بعد هذا ، ولمدة قرنين لم يحل أحد لغز هذه الياقوتة .. لكن الكتاب يلقى علينا أسئلة مهمة ، وهذه الأسئلة هى التى حفزت أمثال (تريلونى) وأنا على محاولة حلها .. والتقينا عند هذه النقطة ، فهو حجة فى اللغات الشرقية ، أما أنا فأفضل منه فى لغات الشمال .. ذهبت إلى أمستردام وبذلت جهدًا كبيرًا فى البحث عن أية كنوز تركها ذلك المستكشف الهولندى .. فى متجر قديم وجدت تلك الياقوتة ذات النجوم السبعة وعليها نقوش هيرغليفية .. لم يكن صاحب المتجر فى عالمه الناعس يعرف أى شىء عن أهمية هذه التحفة إلا أنها حجر ثمين ، وكانت جيوبى مليئة لأننى أشترى للمستر (تريلونى) الذى تعرف بالتأكيد كم هو ثرى .. هكذا ابتعت الياقوتة وعدت إلى لندن وقلبى مفعم بالحماس والسرور .. وضعنا الجوهرة فى خزانة مستر (تريلونى) وانطلقنا نستكشف بعد ما تأكدنا من صدق القصة فى الكتاب .. »

الفصل 10
قبر ملكة

« فى هذا الوقت كانت ثورة (عرابى) قد انتهت وصارت مصر مكانًا مأمونًا للمسافرين الإنجليز .. هكذا سافرنا إلى هناك ، ولم يكن مستر (تريلونى) ممن يخافون حتى بدأت أعتبر نفسى جبانًا بالمقارنة به ..

« وجد مجموعة من الأعراب ؛ منهم واحد عرفنا أن بوسعنا أن نثق به .. أو على الأقل نشك فيه بقدر أقل من الباقين(*) .. وحصلنا على موافقة السلطات الموالية للبريطانيين ، وإن احتجنا للكثير من الرشوة .. ثم بدأنا رحلتنا فى الصحراء ..

بدأنا البحث فى أسوان إلى أن وجدنا واديًا يشبه هذا الذى وصفه (فان هيون) .. وجدنا ذلك الجرف الصخرى ، لكن الأسرار التى حيرت (فان هوين) لم تعد مستغلقة علينا اليوم .. استطعنا قراءة ما كتبه كهنة طيبة منذ خمسين قرنًا .. كهنة معادون لو كان لى أن أقول هذا .. فقد كانت الكلمات تقول :

(★) اعتاد القارئ على كل حال عنصرية (ستوكر) وكراهيته للأفارقة والعرب .. وقد قرأنا من هذا الكثير فى (عرين الدودة البيضاء) ، وقلنا إنه كتب قصته فى ذروة عصر الإمبراطورية البريطانية ..

« هاهنا تأتى الآلهة من دون دعاء .. فقد أهانهم الذى لا اسم له ولسوف يظل وحيداً للأبد .. لا تدنُ وإلا صعقك انتقامهم .. »

لم يعد أحد يقدر على قراءة المكتوب ، لكن صدى التهديد ظل حيًا عبر القرون ، فلم يجسر واحد من الأهلى على الدنو من هذا القبر .. ولم نجسر على ترجمة المكتوب للقادمين معنا ، فهم وإن كانوا لا يؤمنون بتلك الآلهة التى يحذرنا الكهنة منها ، فهم مؤمنون بالخرافات كثيرو التطير .. ومن السهل أن يتخلوا عن المهمة ويفرون ..

صنعنا درجات من الخشب تعتلى الصخرة ، وصعدنا إلى حيث وجدنا الصخرة التى تسد الكهف موضوعة بشكل أخرق وإن أبقاها وزنها حيث هى .. اضطررنا لدفعها للداخل كى نتمكن من الدخول ..

هكذا نزلت القبر أنا ومستر (تريلونى) ومعنا مصابيح عدة رحنا نثبتها ونحن نتوغل .. كان هذا من أجمل ما رأته أعيننا من قبور .. لابد أنه أعد فى حياة ساكنة وبأوامره ..

وعلى القطعة التى نطلق عليها اسم (البلاطة التذكارية) وجدنا نقوشًا بالهيروغليفية تقول :

ـ « تيرا .. ملكة مصر وابنة (أنتيف) ملك الشمال والجنوب .. »

ثم راحت الكتابة تحكى قصة ملكها .. كان تاجا الشمال والجنوب (الهيجت والدشر) فى قبر ملكة مصرية وهذا شىء غير معتاد .. كان هناك عرف فى مصر القديمة أن هذا التاج يلبسه ملك فقط ..

لك أن تتصور ذهولنا وسط كل هذه العظمة .. خاصة أننا لسنا أول بشريين نرى هذه الأشياء ، لكننا أول بشريين ندرك معناها منذ خمسة آلاف سنة ..

كان سقف المقبرة منقوشًا بكثافة وكل النقوش بلون أخضر مزرق ، وقد نزل (تريلونى) أولاً .. بالداخل وجدنا تابوتًا من حجر أصفر هو الذى رأيته أنت فى غرفة مستر (تريلونى) .. كما وصفه (فان هوين) بالضبط .. بالطبع كان المشهد أقل إثارة مما وجده (فان هوين) لكن كان هناك مشهد أثار رعبنا ولم يره هذا الأخير .. ففى نهاية ذراع الملكة ـ حيث بتر الساعد ـ كان هناك دم جاف !!

كأنها نزفت حتى الموت ! وقد سال الدم وأغرق اللفافات كأنه الصدأ ..

هنا كان الدليل على صدق الراوى .. بالتالى لم أعد أشك فى باقى قصته .. مثل الأصابع السبعة على حنجرة الشيخ ..

الآن لن أثقل عليك بتفاصيل لا تهم سوى الأكاديميين .. سأحكى لك ما يهمك فقط .. كانت الملكة (تيرا) هى الحادية عشرة فى سلالة ملوك من طيبة تواجدت بين القرن التاسع والعشرين والخامس والعشرين قبل الميلاد .. كانت الابنة الوحيدة لأبيها (أنتيف) .. مات أبوها فى صغرها فأغرى هذا

الكهنة بأن ينفذوا مؤامرتهم للاستيلاء على الحكم .. لكن الملك كان قد تحسب لهذا ؛ لذا ضمن لابنته ولاء الجيش ، وعلمها علم الكهان وسحرهم ، بحيث نشأت الفتاة بين النصوص وأحبت الفنون .. من المدهش أن تعرف أن جزءًا كبيرًا من النقوش التى رأيناها صنعتها بنفسها ..

لقد درست السحر الأسود وصار بوسعها أن تسيطر على العقل وقدرات الإرادة والنوم واليقظة .. وقد جعلت الكهنة يضعونها فى تابوت وينزلونها القبر لمدة شهر ، ثم عادت بعد هذا لتثبت أنها أقوى من الموت ..

فى كل جزء من المقبرة توجد رسوم تمثل كوكبة نجوم المحراث . يبدو أنها بشكل ما كانت تربط نفسها بهذه الكوكبة ..

كان الكهنة ينوون محو اسمها ، وهذا شىء خطير لو كنت مصريًا قديمًا لأنه يحرمك نهائيًا من العالم الآخر .. وكانت هى تعرف هذا ؛ لذا قررت أن تبعث ثانية بعد زمن بعيد فى أرض شمالية أكثر .. تحت كوكبة النجوم التى حكمت ميلادها .. حرصت على أن تترك يدها غير ملفوفة وفيها الجوهرة ، بحيث يمكنها الحركة لو شعرت بهواء طلق .. كما فهمنا فإنها قررت أن تتحول إلى شكل نجمى وتتجمع جزءًا بجزء حتى تصير هى من جديد ..

عند قدميها فى التابوت كان صندوق حجرى ذو سبعة جوانب هو الذى رأيته فى غرفة مستر (تريلونى) ..

لقد ظللنا فى وادى الساحرة أيامًا حتى نسخنا كل ما وجدناه على الجدران .. وعندما رحلنا أخذنا عدة أشياء من بينها تابوت المومياء ذاته .. كانت عملية النقل صعبة ، وكان الخطر دائمًا خاصة فى الليل من العصابات وهؤلاء البدو المرافقين لنا ..

فى الليل داهمتنا عاصفة سموم من تلك العواصف العنيفة التى تهاجم الناس فى الصحراء .. هرب البعض بينما حاولنا أن نتماسك ونصمد ..

فى الصباح جمعنا حاجياتنا .. وجدنا التابوت الذى كانت فيه المومياء لكن لم نجدها .. بحثنا .. حفرنا الرمال بلا جدوى .. لكن فى الليل نهض (تريلونى) وهمس فى أذنى :

ـ « سنعود إلى المقبرة ! لا تسأل عن السبب حتى لا نسبب الشكوك .. فقط نفذ ما أقول »

ثم همس :

ـ « سنجد المومياء هناك ! تأكد من هذا »

هكذا قررنا العودة ولم يرق هذا للعرب وحدثت احتكاكات كثيرة .. من ثم وجدت ومستر (تريلونى) أننا مرغمان على العودة

وحدنا إلى الوادى وإن وعد الشيخ بأن ينتظرنا فى المعسكر ثلاثة أيام ..

بدا واضحًا أن هناك من دخل المقبرة أثناء غيابنا ، فقد كان الحبل يتدلى داخل القبر من الفتحة العلوية ! تبادلنا النظرات ولم نتكلم ..

نزلنا إلى المقبرة .. هنا خطر لى أن هذه مصيدة محكمة .. لو أن أحدهم قطع الحبل لدفننا هنا حيين ، وكانت الفكرة مرعبة لكن وقت عمل شىء قد تأخر ..

دخلنا قاعة الدفن ، وكانت خاوية موحشة بسبب غياب التابوت العظيم .. ما جعلها موحشة أكثر هو مومياء الملكة التى وجدناها ملقاة على الأرض ! وجوار الأشلاء كان ثلاثة من العرب الذين تركونا .. كانوا موتى اسودت وجوههم وتلطخت ثيابهم بالدم الذى نزف من أفواههم وأنوفهم .. وعلى حلق كل منهم أثر يد ذات سبعة أصابع ..

صرخنا وتماسكنا .. لأن ما هو أكثر شناعة كان تلك اليد التى استقرت على صدر المومياء .. يد لها لون العاج ولها سبعة أصابع !

الفصل 11

النهوض من السُّبات

لما استعدنا روعنا لم نضيع أى وقت فى نقل المومياء .. نقلناها خارج المقبرة وعدنا إلى معسكرنا حيث كان ينتظرنا مرافقونا .. لدهشتنا وجدناهم موشكين على الرحيل . سألنا الشيخ فقال إنه أنهى المطلوب منه فى الاتفاق وأن ثلاثة أيام قد مرت .. حسبته كاذبًا يبرر رغبته فى تركنا ..

وصلنا القاهرة وهناك تذكرنا أن تاريخ دخولنا المقبرة الثانى كان 3 أكتوبر 1884 .. لن أنسى التاريخ لسبب معين . لقد مرت علينا فى المقبرة ثلاثة أيام كاملة ونحن نحدق فى المومياء وأشلاء اللصوص !

من القاهرة قصدنا الإسكندرية حيث كان علينا أن نركب سفينة إلى مارسيليا .. ومن هناك بالقطار إلى لندن .. لكن كانت تنتظرنا فى الإسكندرية برقية تخبرنا أن مس (تريلونى) ماتت وهى تضع طفلة .. هى (مارجريت) ..

هكذا انفصل عنى مستر (تريلونى) ليسرع إلى الوطن ، ولحقت أنا به حاملاً المتاع والمومياء .. لقد شاب شعر الرجل ، ومنذ تلقى البرقية لم أره يضحك مرة واحدة ..

كانت علاقته بابنته (مارجريت) مركبة تجمع بين الحب الذى يبلغ درجة العبادة ، والشعور بأنها سبب موت أمها .. الشىء الثانى الذى أخفاه لكنه أعلن عنه فى لحظة معينة هو :

ـ « إنها لا تشبه أمها .. تشبه صور تلك الملكة (تيرا) ! »

ثم أرسل الطفلة لتتربى بعيدًا ، ولم أرها مرة أخرى قط حتى هذا اليوم الذى جئت فيه للبيت ..

قرر أن يغرق همومه فى العمل ، وقد قضى وقته فى دراسة ما حصل عليه وفى تنسيقه ..

كانت خلاصة دراسات (تريلونى) تقول إن سر الياقوتة لن يتضح إلا عندما توضع فى وضع خاص وسط ما يماثل نجوم كوكبة المحراث .. أى أنه يجب أن تحيط بها سبعة مصادر ضوئية تعمل عمل النجوم .. وقد جربنا هذا بعدة مصابيح بلا جدوى ، من ثم فكر (تريلونى) فى أن هناك نوعًا من المصابيح اصطنعتها الملكة (تيرا) تقوم بهذه المهمة بالذات ..

هكذا عدت إلى مصر وإلى المقبرة من جديد بحثًا عن تلك المصابيح الغامضة ، وكان هناك سرداب خفى لم نفطن له فى المرة الأولى ، لكنى وجدت جثة لص حاول فتحه ومات .. رحت أنقب أعوامًا ، وفى النهاية وجدت المصابيح عند تاجر عاديات ..

كلها تحمل شعار الرب (هاتور) ، وقد اضطررت لشراء أشياء كثيرة من ذلك التاجر لأخفى اهتمامى الخاص بهذه الأشياء ، وعدت بها ملهوفًا إلى لندن بعد غياب ثلاثة أعوام عن الوطن لأجد الوضع كما تراه ..

قال مستر (كوربك) وهو ينهى قصته :

ـ « أنت الآن تعرف ما أعرفه عن القصة ، ولك أن تحدد القدر الذى يمكن أن تعرفه مس (تريلونى) .. »

هنا سمعنا صوت مس (تريلونى) يقول :

ـ « عم تتكلمان ؟ وما هو ذلك السر الذى تناقشان معرفتى له ؟ »

* * *

عجزت عن الكلام فقالت :

ـ « لا تتعب نفسك .. لا أود سماع أى شىء قبل أن يشفى أبى .. »

ثم أعلنت أنها ستخرج إلى الحديقة قليلاً كى تنتعش من جو البيت المسموم ..

جلست وحدى فى غرفة المريض وقد انصرفت الممرضة من أجل بعض شأنها ، ورحت أتأمل فى كل ما فات وما قاله لى مستر (كوربك) ..

هنا سمعت صوتًا غريبًا .. صوتًا لا معنى له لكنه بدا كلحن عذب فى أذنى ..

لقد كان الرجل المريض يتكلم !

ـ « من أنت ؟ ماذا تعمل هنا ؟ »

لم يتخيل أحدنا أن يفيق الرجل ويسيطر على حواسه بهذه السهولة !

رددت بطريقة شبه آلية :

ـ « اسمى (روس) .. وأنا مكلف بالعناية بك .. »

ـ « تعنى بى ؟ لماذا تعنى بى ؟ »

ثم استقرت عيناه على الضمادة على معصمه فالتمعتا .. ثم صار أقل عدوانية ، وقال :

ـ « هل أنت طبيب ؟ »

ـ « لا .. »

وابتسمت .. هنا سأل وقد استعاد دكتاتوريته :

ـ « لست طبيبًا ؟ إذن ما الذى تفعله هنا ؟ »

قلت فى هدوء :

ـ « أنا محام لكن ليست هذه صفتى هنا .. لقد طلبتنى ابنتك عندما حسبتك قد قتلت .. بعد هذا اعتبرتنى صديقًا وطلبت منى العناية بك .. »

لم يكن بالرجل كثير الكلام ، وقد أدركت أنه قبل وجودى بسرعة .. ربما كانت لديه أسبابه ..

ـ « هل حسبتم ذلك أمس ؟ »

ـ « بل منذ أربعة أيام .. ! »

بدا عليه الذهول ، ثم قال لى :

ـ « أغلق الباب .. لا أريد أن أقابل أحدًا أو أكلم أحدًا قبل أن أعرف منك بالتفصيل ما حدث .. »

اتجهت لغلق الباب وأنا أشعر بالراحة .. كل واحد فى هذا البيت يعاملنى بشكل استثنائى ..

ـ « هلم .. »

هكذا رحت أحكى له قصتى ، وبالطبع لم أحك شيئًا عن حبى لابنته التى صار اسمها مس (تريلونى) لا (مارجريت) الآن ، ولا قصة (كوربك) التى لم أقل عنها سوى إن الرجل أضاع بعض المصابيح ووجدها فى البيت .. كل هذا وهو يرمقنى بنظراته الفاحصة للروح طيلة الوقت .. وتذكرت أن أصدقائى

كانوا يصفوننى بالقوة .. يجب ألا أضعف أمام هذا الرجل .. إننى أواجه الآن لحظة صعبة بحق ..

فى النهاية قال لى بابتسامة مطمئنة :

ـ « (مالكولم روس) .. سمعت عنك الكثير كجنتلمان شجاع وشريف .. يسرنى أن ابنتى لها صديق .. »

هنا تواثب قلبى ، فقد ربحت أول خطوة فى الفوز بأبى (مارجريت) ..

وفهمت من الكلام أنه سرٌ لمعرفة أن ابنته كانت خائفة جزعة عليه .. لقد كان يحب أمها حقًا ، وحبه لها هو حب لابنة زوجته أكثر مما هو حب لابنته ..

بدأ جو من (الحموة) يولد ويبعث الأمل فى قلبى .. للحظات شعرت بأنه يكلمنى كزوج ابنته فعلاً .. وعندما طلب منى أن أستدعى له (كوربك) حالاً وألا أبلغ ابنته على الفور حتى لا تصدم ، هرعت إلى الباب .. هنا استوقفنى صوته يناديني :

ـ « مستر (روس) »

توقفت وقد تضايقت لأنه عاد لصيغة (مستر) الرسمية بعد ما نادانى (مالكولم) عدة مرات .. عدت له فقال لى :

ـ « أفهم من كل هذا الحماس الذى تتحدث به عن ابنتى أنك تنوى طلب يدها منى فى وقت قريب ؟ »

ـ « بالقطع ! كانت هذه نيتى .. طبعًا بعد فترة مناسبة محترمة .. لقد اقتربت منها فى الفترة الأخيرة أكثر مما كنت أحلم به لكنى أؤكد لك بشرفى أننى ـ من ناحية ابنتك على الأقل ـ ما زلت مجرد صديق ، ولم أفاتحها فى أى شىء بهذا الصدد .. إن الظروف لم تكن تسمح على كل حال .. »

ـ « إذن أطلب منك ألا تفتح الموضوع معها ، لأن الوقت ضيق وأنا بحاجة إلى التفكير فى مواضيع أخرى . »

ـ « أعدك بهذا يا سيدى . »

خرجت وأخبرت (كوربك) بأن مستر (تريلونى) قد شفى .. راح يرقص كالمجنون .. أما (مارجريت) فجلست على أقرب مقعد وراحت تبكى .. أخبرت الرقيب (دو) فسألنى على الفور :

ـ « ما هى قصته عن الاعتداء الأول عليه ؟ لقد كان فى غيبوبة عندما وقع الاعتداء الثانى .. »

كنت قد نسيت كل شىء عن الاعتداء الأول .. لم أسأل الأب عنه ، لكن الغريزة المهنية لدى الرجل كانت قوية فعلاً .. وكان

رأيه إن فرحة عودة الرجل للوعى سوف تنسينا جميعًا البحث عن تفسير منطقى لما حدث ..

نادى الأب (مارجريت) فهرعت إلى حجرته غير مصدقة ..

كان آخر ما رأيته هو منظرها بين ذراعى أبيها ، ثم انغلق الباب عليهما ..

الفصل 12

الوحمة

كنت غارقًا فى خواطرى بصدد هذين المخلوقين القويين اللذين لم يجدا الفرصة قط ليتقاربا .. كان كل منهما بحاجة إلى أن يشعر باهتمام الآخر ، عندما انفتح الباب وناداني مستر (تريلونى) بلهجة آمرة :

- « تعال يا مستر (بروس) .. »

نهضت متوجسًا من هذه اللهجة الرسمية ، فأغلق الباب خلفى وقال لابنته :

- « هذا الرجل عرف الكثير جدًا عن الموضوع فلم يعد أمامنا إلا أن نتوقف هنا ونطلب منه أن يرحل ، أو أن تريه ساعدك .. »

فى تردد كشفت (مارجريت) عن ساعدها وقربته منى .. هنا أجفلت مما رأيت .. فعلى معصمها كان خط أحمر متعرج تتدلى منه نقط حمر كأنها قطرات دم !

الغريب أنها بدت فخورًا برغم ما جبلت عليه من نكران الذات .. برغم النار المتقدة فى عينيها والمسلطة على روحى .. كانت تفيض كبرياء .. كبرياء ملكة من عصور غابرة ولدت كى تكون الأولى والأعظم ..

سألنى أبوها :

ـ « ماذا تراه ؟ »

لم أرد بكلمات .. فقط أمسكت بيد (مارجريت) ولثمت معصمها .. لمحت شبح ابتسامة على شفتيها كأنها تحلم ..

قال الأب :

ـ « الآن هات لى مفتاح الخزانة كى ألقى نظرة على تلك المصابيح .. »

هكذا هرعت إلى (شانسرى لين) لأجلب له المفاتيح ..

تناولنا العشاء مع د . (ونشستر) ومستر (كوربك) وكان عشاء مرحًا بطبيعة الحال .. وبعده قال لى الأب :

ـ « أرى أن تمضى ليلتك فى بيتك .. فأنا بحاجة للهدوء والحديث مع ابنتى .. غدًا أخبرك بالمزيد .. »

كنت أشعر بضيق لترك البيت بعد تلك الأيام لكنى فهمت إرادته واحترمتها ..

ـ « تعال مبكرًا فى أى وقت تريد .. لو أردت تناول الإفطار معنا فلتأت .. »

ولم أنم تلك الليلة .. السعادة على جانب من فراشى والقلق على الجانب الآخر .. وجاء الفجر مسرعًا مندفعًا .. فهرعت إلى دار (مارجريت) لأتناول الإفطار مع الأسرة ..

قال الأب لما فرغ من الإفطار :

ـ « أنا راغب فى إجراء تجربة علمية خطيرة أعتقد أنها ستضيف الكثير لفهمنا للكون وللبشرية ، لكنى لست طليق اليد فى وجود ابنتى .. أشعر أن هناك خطرًا لا بأس به عليها .. »

نهضت (مارجريت) واحتضنت أباها ، وقالت :

ـ « أبى .. إن أمى لم تطلب منك البقاء جوارها حينما قمت بتلك الرحلة الخطرة لمصر ، خاصة والبلاد كانت فى حرب .. لقد تركتك تذهب كما أردت برغم خوفها عليك .. والدليل هو هذا »

ومدت معصمها كى نرى ذلك الخط الشبيه بالندبة ، وقالت :

ـ « ابنة أمها ستفعل ما كانت أمها ستفعل .. معًا سوف نجتاز هذا الخطر أو معًا سوف نفشل .. »

شعرت بأنها ملكة أكثر من أى وقت مضى ، وقد نهضت وأمسكت بيدها ، وقلت :

ـ « مستر (تريلونى) .. أنا وابنتك شخص واحد فى هذا الموضوع .. »

بعد قليل جاء مستر (كوربك) ود . (ونشستر) .. بدا من ملامحهما أنهما مقبلان على أمر خطير بحق .. واجتمعنا فى غرفة المكتب حول مستر (تريلونى) الذى نظر للطبيب ، وقال :

ـ « أنت الآن تعرف من مستر (كوربك) قدر ما نعرف ، فهل أنت مستعد لخوض هذه التجربة ؟ »

قال الطبيب :

ـ « أنا مهتم بشدة بهذه القصة الغامضة .. وأنا رجل علم مهتم بالظواهر الغريبة ، كما أننى وحيد بلا أسرة .. يمكنك الاعتماد على »

قال مستر (تريلونى) :

ـ « التجربة التى نحن بصددها هى معرفة ما إذا كان هناك شىء من الصواب فى السحر القديم .. لا توجد ظروف أفضل من هذه للاختبار .. عن نفسى أنا مؤمن بأن هناك حقيقة فى هذا .. بعد كل شىء ليست التوراة كتابًا خرافيًا ، وهى تتحدث عن أن الشمس توقفت فى كبد السماء بأمر رجل ، وأن حمارًا تكلم .. هذه الملكة (تيرا) ظلت مجهولة بالنسبة لكل من كتب عن التاريخ الفرعونى ، لكنها كانت ساحرة .. وما دامت ساحرة فإن لها شيطانًا Familiar بالتأكيد .. فهل فكر أحدكم فى شيطانها ؟ »

هنا هتف الطبيب :

ـ « القط ! مومياء القط ! »

ابتسم مستر (تريلونى) ، وقال :

ـ « نعم .. كل شىء يؤكد أن شيطانها كان القط الذى تم تحنيطه ودفنه معها .. ليس فى قبرها بل فى ذات التابوت معها .. هو ذات القط الذى مزق معصمى .. »

هتفت (مارجريت) :

ـ « إذن (سيلفيو) المسكين برىء .. حمدًا لله ! »

ـ « واضح أن هذه المرأة كانت تتمتع بحدس خارق للعادة .. لابد أنها نظرت إلى الشمال وفتنتها نجوم كوكبة المحراث السبعة .. هكذا ولدت جوهرة النجوم السبعة التى اعتبرتها طلسم حياتها .. رقم سبعة كان الرقم السحرى فى حياتها ولا غرو .. سبعة أصابع فى يدها وسبعة فى قدمها .. لقد ولدت مع فيضان النيل فى الشهر السابع من السنة ، وكانت ربتها هى (هاتور) التى جمعت المكر والحكمة .. لو طبقنا التقويم الميلادى فالشهر السابع يبدأ عندما يكون نصل المحراث فوق طيبة .. تذكروا أن الفراعنة بلغوا مبلغًا يفوق علمنا فى علوم عدة ، ومنها الفلك والصوتيات المذهلة فى معبد الكرنك .. هنا نفحص الصندوق الذى وجدناه فى المقبرة بين قدميها والذى له سبعة جوانب ،

والذى أعتقد أنه صنع من نيزك سقط يوم مولدها .. هذا الصندوق غير قابل للفتح لأنه مغلق من الداخل ، فكيف انغلق ؟ وماذا يحويه ؟ أعتقد أنه يحوى أسرارًا عظمى .. ربما هى أسرار عرفها الفراعنة وتمت بصلة لسيطرتهم على الأعشاب .. ربما عرفوا وصفات سحرية لا نعرفها ، ولها قدرة سحرية على التنويم .. تذكروا أننى نمت ثلاثة أيام كاملة ومن قبل مرت علينا ثلاثة أيام فى المقبرة دون أن نشعر ..

« كانت الملكة تعد كل شىء لعودتها للحياة .. وعلى عكس العقيدة الدينية وقتها ، كانت تأمل فى أن تعود بلحمها ودمها .. وهو ما أثار غيظ الكهنة .. لاحظوا أن أوعيتها الكانوبية خالية .. أعتقد أن أحشاءها لم تنزع قط ، ومخها لم يتم تفريغه كما هى العادة ..

« لماذا تركت الممر الذى يقود للمقبرة خاليًا مع أن العادة جرت على أن يتم ملؤه بالحصى ؟ لأنها كانت تأمل أن تغادر القبر فى صورة امرأة جديدة وأرادت أن يكون الطريق مفتوحًا .. لنفس السبب وضعت السلسلة التى وصفها (فان هوين) لتتمكن من تسلق المقبرة إلى أعلى الجرف الصخرى .. »

الفصل 13

غرض الملكة (تيرا)

- « الآن ماذا عن الجوهرة ؟ هناك كلمات معينة عند المصريين قيل إنها كلمات سرية أو (حيكاو) ، قادرة على استدعاء أرباب العالم السفلى والعلوى .. إن جوهرة النجوم السبعة منقوشة بالهيروغليفية فى موضعين وعليها تلك (الحيكاو) .. ولكن انتظروا لتروا بأنفسكم .. »

وغاب لمدة دقيقة أو اثنتين ، ثم عاد بصندوق ذهبى صغير ..

على وسادة من ساتان أبيض كانت ياقوتة عظيمة الحجم وقد تمت صياغتها على شكل جعران .. وكانت سبعة نجوم تلتمع وسط اللون الأحمر المبهر .. بالفعل لها شكل المحراث .. هناك تعويذتان .. واحدة تقول (الحب) وهى تستعمل لاستدعاء أرباب العالم العلوى ، و(الصبر) وتستعمل لاستدعاء أرباب العالم السفلى ..

قال مستر (تريلونى) :

- « إذن هى ظلت كل هذه القرون فى تابوتها تنتظر متذرعة (بالصبر) الذى يستدعى أرباب العالم السفلى ، منتظرة (الحب) الذى يستدعى أرباب العالم العلوى .. هنا نأتى لأجرأ استنتاج لى ..

هـذه الهجمـــة علىّ كـان الغـرض منهـا فتـح الخزانـة وإخـراج جوهرة النجوم السبعة للعالم الخـارجى .. إن حضورهـا النجمـى كروح أو (كـا) لا يقدر علـى إخراج الجوهـرة من الداخـل لأن الجوهـرة ذات وجـود مـادى قـوى .. هكـذا استعملت الملكـة حضورها النجمى وقوة شيطانها ـ مومياء القط ـ للحصول على المفتاح .. أنا أيضًا تذرعت بالصبر فترة طويلة كى أجد الظـروف الملائمة لفتح الصندوق وإعادة الملكة للحياة .. »

سألته (مارجريت) :

ـ « أبى .. ألم يكـن الفراعنـة يؤمنون بـالبعث مرة واحدة لا أكثر ؟ أم أنهم آمنوا بتكرار البعث فى عدة عصور ؟ »

ـ « إن هو إلا بعث واحد فى عقائد الفراعنة .. لكن بينهم من اعتقدوا بالبعث فى عالمنا هذا .. »

قالت وقد لمعت الدموع فى عينيها ، وهـى تنظر إلـى الأفق كأنها تحلم :

ـ « أفهم هذه المرأة المسكينة التـى امتلكت كل شـىء عدا الحب .. ما من أحد يفهمها إلا امرأة .. أعرف الشعور لأننـى جربته من قبل .. هذه الملكة كانت أعلى مما حولها .. أعلى مـن زمنها .. »

بدا الرضا على الأب ، وانتظر حتى هدأت عواطـف ابنتـه ، ثـم قال :

ـ « الآن دعونا نتكلم عن ذلك الصندوق الحجرى .. أنا مقتنـع بأنه ينفتح طبقًا لطريقة ضوئية ما .. هناك حقائق كثيرة نجهلها عن الضوء واعتقادى أنها أرض بكر للباحثين .. خلال السنوات الأخيرة عرفنا عن الضوء مـا كـان يكفـى لإرسـال المكتشـفين للمحرقة منـذ قرنين .. أشعة (رونتجن) .. الـرادون .. أشعة (بيكوريل) .. الراديوم .. يمكن القول إن كل مصدر ضوئـى لـه قوى خاصة به .. نحن نلاحظ أن نار البارافين تختلف عن نـار الفحم أو نار زيت الحوت .. هنا فكرت فـى الزيت الموجود فـى أوعيـة الملكـة (تـيرا) الكانوبيـة .. هـذه الأوعيـة لـم تصنـع للاحتفاظ بأحشـائها بـل لغرض مـا .. لقد فحصت هذه الأوعيـة وجدت أن هذا زيـت خشب الأرز .. هنـا خطر لـى أنـه مستخدم لملء المصابيح .. أنت تعرف أن زيت خشـب الأرز كان يستعمل بكثـرة فى طقوس الفراعنـة وله خاصيـة انكسار فريـدة .. نحـن نستعمله فى المجهر لإعطاء رؤية أفضل .. لقد مـلأت مصباحًا وأشعلته ووضعته جوار الصندوق .. كان التأثير مبهـرًا وقد بـدا كأن الصندوق يتألق من الداخل ، بينما كان تأثير الضوء الكهربى محدودًا .. لقد طلبت كميـات أخـرى مـن هـذا الزيـت .. وسـوف نرى .. »

قال الطبيب :

- « لنفرض أننا فعلاً نجحنا فى فتح الصندوق بهذه الطريقة .. ألا يتلف هذا (ميكانيزم) الفتح فيما بعد ؟ »

كان شكه هذا ما دفعنا إلى التفكير فى أشياء أخرى كثيرة ..

الفصل 14

الكهـــف

مر بنا الوقت .. مسرعًا فى بعض الأحيان وبطيئًا فى بعضها .. كنت أفكر فى التجربة المقبلة بكل ما فيها من غموض ، شاعرًا بحماقة من يعرّضون أنفسهم لخطر كهذا .. كل شىء غامض جدًا .. كل شىء غير ضرورى !

حتى لو نجحت هذه التجربة فما جدواها ؟ وأية متاعب لن تسببها ؟ ماذا سيحدث لو عرف الناس أن أبواب بيت الموت ليست موصدة للأبد ؟ وأن الموتى قد يعودون للحياة ؟ ما تأثير نجاح هذه التجربة على معتقداتنا الدينية ؟ هل تعنى هذه التجربة وجود قوى عليا أخرى غير التى آمنت بها المسيحية ثمانية عشر قرنًا ؟ سوف يعنى هذا فرضية مفزعة لدرجة أن المرء لا يجسر على التفكير فيها ..

ما الذى رآه الشاعر (ملتون) بعينيه الكفيفتين فى ضوء الإلهام الشعرى ؟

كان الموضوع أكبر منى لهذا كففت عن التفكير ورحت أنتظر فى صبر ما تسفر عنه الأمور .. احتفظت (مارجريت) بهدوئها وقد حسدتها على هذا ، وإن اتسم باقى الرجال بالتوتر والعصبية ..

فى ذلك المساء اجتمع بنا مستر (تريلونى) فى مكتبه .. وقد أرهفت السمع لما سيقول :

- « لقد توصلت إلى أنه كى ينجح ما أطلق عليه (تجربتنا الكبرى) فإن علينا أن ننعزل .. ننعزل بالكامل .. ليس ليوم أو اثنين بل لأى وقت نحتاج إليه .. هذا شىء عسير التحقيق فى هذه المدينة الكبرى حيث تقتحم خلوتك برقيات .. خطابات مسجلة .. بالإضافة لهذا تتركز عيون الشرطة على هذا المكان بعد ما حدث فى الفترة الماضية .. أضف لهذا أن الخدم الذين تركوا العمل سوف يتكلمون .. وسوف يعرف الخدم فى البيوت المجاورة بالأمر ، وبعدها سوف يتسرب الأمر إلى الصحافة . يجب أن نفكر فى العزلة ومن حسن الحظ أننى فكرت فى الموضوع منذ زمن ، وقد أعددت بيتى فى (كورنوول) لاستقبال التحف التى وضعتها هنا .. إنه مضاء بالكهرباء ومعزول تمامًا .. وهو يقف فوق جرف صخرى خلف تل منحدر فلا يمكن رؤيته إلا من البحر .. لقد رتبت مع المحامى (مارفين) أن يعد كل شىء للنقل .. هناك قطار مخصص لنا سوف ينطلق ليلاً ، وقد أعد لنا عددًا من العربات والرجال لنقل متاعنا إلى (بادنجتون) ..

سوف نبدأ حزم أمتعتنا اليوم ويجب أن نكون مستعدين مساء غد .. مسز (جرانت) سوف ترتب رحيل الخدم إلى (كيليون) .. إن الخدم الذين بقوا مخلصون لنا بشدة ، وهذا يعود لمعاملة (مارجريت) الحسنة لهم .. »

هكذا بدأنا العمل .. كانت هناك حاويات عملاقة مدعمة بالخشب ووضعناها فى البيت ، كلاً جوار الشىء الذى ستحتويه .. لا أحد يستطيع أن يتخيل كمّ الجهد الذى يقتضيه عمل كهذا الذى قمنا به .. كل شىء تم تحت إشراف مستر (تريلونى) الذى كان يمسك بقائمة يسجل فيها موضع كل شىء ..

انتهى العمل تمامًا فى وقت العشاء فى اليوم التالى .. وسرعان ما جاء موكب العربات قبل منتصف الليل بقليل .. تم نقل كل شىء ، وقد جبنا البيت الذى تحول إلى فوضى بعد رحيل الخدم .. فى كل غرفة أكوام من الغبار والقش والقاذورات ..

آخر شىء قام به مستر (تريلونى) هو أن فتح الخزانة وأخرج منها جوهرة النجوم السبعة ووضعها فى جيبه .. قالت له (مارجريت) مشجعة :

- « لا تخف يا أبى .. ستمر رحلتنا بسلاسة .. ما دام جسدها النجمى يحوم حولنا فهى تعرف .. ولسوف تغمرنا بحمايتها ما دامت تعرف مهمتنا ! »

وركبنا سيارة أجرة إلى (بادنجتون) ..

تم تحميل كل شىء فى المحطة ، بينما ركبنا نحن عربات نوم .. وما إن تحرك القطار حتى نعمت بنوم هادئ .. شعرت بشكل ما أن ما قالته (مارجريت) بشأن عدم حدوث مشاكل له معنى ما .. وإن كنت عرفت فيما بعد سبب كونها متأكدة لهذا الحد ..

برغم هذا كانت هناك إشارة مقلقة لم نشعر بها لأننا كنا نيامًا .. فى الصباح أخبرنا أحد عمال القطار أن القطار كان فى طريقه بين (دوليش) و(تيجنماوث) عندما أوقفته إشارة تحذير من شخص وقف على القضيب يلوح بمصباح .. وقد وجد السائق انهيارًا أرضيًا أمام القطار .. لقد تهاوى جزء من التربة الحمراء على جانب الطريق لكنه لم يبلغ القضبان .. وهكذا واصل السائق طريقه متضايقًا من التأخير ..

وصلنا (وسترسون) فى التاسعة مساء .. لم ننتظر لمراقبة عملية تحميل العربات لأن القائمين كانوا رجالاً أكفاء ، وانطلقنا بعربات تجرها الخيول إلى (كيليون) ..

كان البيت عبارة عن بناء صخرى رمادى عظيم يتلألأ فى ضوء القمر .. وكان يقف فوق جرف صخرى يطل على أمواج البحر ..

من الداخل كان البيت نظيفًا منسقًا لأن الخدم سبقونا واعتنوا به ، وقد اغتسلنا من وعثاء السفر وبدلنا ثيابنا ..

تناولنا العشاء فى قاعة طعام جنوبية بينما صوت الأمواج لا يكف عن الهدير .. ثم دعانا مستر (تريلونى) إلى غرفة مكتبه التى كانت فيها خزانة كبيرة تشبه بالضبط خزانته فى بيت (لندن) ، ثم راح يبحث فى جيبه عن الجوهرة .. بدا عليه القلق وغمغم :

ـ « رباه .. تبدو مختلفة . أرجو ألا يكون شىء خطأ قد حدث .. »

التففنا حوله نحن الرجال ، بينما وقفت (مارجريت) هادئة .. كأنها تمثال .. كانت هناك نظرة بعيدة فى عينيها كأنها لا تعرف أو تبالى بما يحدث حولها ..

بحث (تريلونى) عن الجوهرة ، ثم سقط على المقعد ، وقال بصوت خشن :

ـ « رباه ! لقد اختفت ! ومن دونها لا قيمة للتجربة العظمى ! »

هنا أفاقت (مارجريت) ، فقالت :

ـ « ربما سقطت من جيبك فى غرفتك يا أبى .. »

اندفعنا بلا كلام إلى الحجرة المجاورة ثم هبطت الراحة علينا .. هناك على منضدة كانت جوهرة النجوم السبعة .. تلتمع كأن النجوم حبيسة فيها ..

وسرعان ما حمل مستر (تريلونى) الجوهرة إلى الحجرة المجاورة وألقاها فى الخزانة .. وتنفس الصعداء ..

هنا بـدأت العربـات تصل .. وقمنـا بترتيب كل شـىء ووضـع التحف فى أماكنها ..

وفى الصباح ـ بعـد ليلـة هـادئـة ـ أعلن مستر (تريلونى) أن الخدم سيعودون إلى لندن هذه الليلة مع مسز (جرانت) ..

لما انفرد بنا مستر (تريلونى) فى مكتبه بعد هذا قال :

ـ « قبل أى شـىء هنـاك سر نحتفظ بـه منذ ثلاثمائـة عـام ، يقسم الناس أن يبقوه سرًا وهذا قسم لم يحنث بـه أحد قط ؛ لـذا أطالبكم بأن تقسموا لى أن يظل هذا السر طى الكتمان .. »

أقسمنا له كما أراد ، فأردف :

ـ « هناك كهف فى هذا البيت .. كهف طبيعى تحت البيت تم استكماله صناعيًا .. ثم استعمل فى التهريب فى فترة من التاريخ .. »

وغادر القاعة بضع دقائق ثم عاد وطلب منا أن نتبعه ..

كان هناك تمثال لملاك تمت إزاحته بعيدًا ، وخلفه كـانت فتحـة حالكة الظلام .. ورأينا بداية درج .. مشينا خلف مضيفنا فلم يكن الداخل مظلمًا تمامًا .. وبعد خمسين سلمة ملتفة وجدنا أننا فـى كهف عظيم .. كـانت هنـاك بكرة معلقـة أعلـى المكـان بـدا أنهـا (ونش) يستعمل لإنزال أو رفع أثقال كبيرة ..

ـ « تلك هى البقعة التى اخترتها .. أؤمن أنها تحقق شروط هذه التجربـة ونحن هنـا معزولـون كالملكـة نفسـها فـى قبرهـا الحجرى .. لو نجحت التجربة فنحن نقدم للعلم الحديث قبسًا من نور لا ينفد من العلوم القديمة ، أما لو فشلنا فلسوف يفنـى سر محاولتنا معنا .. »

أخذ مستر (تريلونى) شهيقًا عميقًا ، ثـم بصوت أكثر مرحًا وأكثر تصميمًا قال :

ـ « والآن لنبدأ .. »

رحنا نرص فى أماكن حددها لنا (تريلونـى) التـابوت وأشياء أخرى من مقبرة (تيرا) .. كنت أشعر بأن (مارجريت) تغيرت نوعًا .. أرى فيها نوعًا من التصميم والقسوة وقد تقلصت شفتها فى شكل خط رفيع لم أره من قبل .. رحت فـى سرى أتمنـى أن تعود كما كانت وأن تفشل هذه التجربة بسرعة ..

فى النهاية قال مستر (تريلونى) :

ـ « كل شىء فى موضعه .. فقط بقـى الانتظـار حتـى اللحظـة المناسبة »

صمتنا جميعًا ، ثم قرر د . (ونشستر) أن يتكلم أولاً :

ـ « ما هى اللحظة المناسبة ؟ هل لديك تخيل تقريبى لها ؟ »

ـ « لقد فكرت فى يوم 31 يوليو .. »

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

ـ « لأن الملكة كانت ستختار لعودتها الشهر الذى يسيطر عليه إله مسئول عن إحياء الموتى .. (رع) .. رب الشمس .. إنه ينهض فى الصباح كأنه يكرر معجزة البعث .. إنها اختارت لعودتها الشهر الرابع ـ وهو يتوافق فى بدايته مع 25 يوليو ـ لذا توقعت أن تنهض فى اليوم السابع .. أى الموافق 31 يوليو بتقويمنا »

هكذا صار علينا أن ننتظر يومين حتى يأتى ذلك اليوم الموعود ..

الفصل 15

درس الـ (كا)

فى تلك الأيام كنت قلقًا .. قلقًا على (مارجريت) ! لم يكن السبب أننى أشك فى حبها ولا أخلاقها ولا رقتها .. كنت أشك فيها هى !

كانت (مارجريت) تتغير ! فى لحظات بعينها كنت أشعر أن هذه (مارجريت) أخرى غير التى ركبت معها ذلك القارب .. (مارجريت) كثيرة الشرود ولكنها تتابع كل شىء ، وفى عينيها ذكاء مخيف ينفرنى منها .. ثم تثوب لرشدها فتقول لى كلامًا عذبًا كالذى اعتادت قوله ، لكنها تبدو مختلفة تمامًا .. كأنها تسمع بروفة مسرحية مكتوبة لها ..

بعد مرة أو اثنتين من هذه التجارب بدأت أتغير تجاهها وراحت علاقتنا تزداد برودًا .. باستثناء لحظات نادرة أدرك فيها أنها استعادت شخصيتها .. هذه اللحظات هى ما أبقى حبى لها ..

كنت أتمنى أن أصارح أحدًا بأفكارى ، لكن من تصارح ؟ حتى أبيها يستحيل أن يسمع لك .. لذا اكتفيت بالصبر والأمل .. وقد شعرت هى بتغير من جهتى ؛ لذا راحت تحاول أن تظل بقربى أكثر ساعات اليوم ، وهو ذات ما كنت أفعله أنا فى الماضى !

خرجت وحدى فى المساء لأننى أردت أن أفكر ، وهناك فى الظلام أطلقت العنان لشكوكى التى أخفيتها عن نفسى كل هذه الفترة .. كانت النتيجة مروعة لكنها منطقية جدًا ..

(مارجريت) ولدت لأم ميتة فى ذات الوقت الذى كان أبوها فيها فى أسوان يفحص مومياء ملكة ساحرة .. ملكة قيل إنها قادرة على التحرر من قيود المادة لتمارس الانتقال النجمى .. هذا جعلها ـ برغم المسافة بين لندن وأسوان ـ قادرة على التأثير على الأم والطفلة معًا ..

لقد ماتت الأم وطفلتها ! الروح حلت بالجسد الصغير الميت ليبدأ حياته ..

لو كانت عقيدة الـ (كا) عند المصريين حقيقية ، فإن بوسع الـ (كا) والـ (خو) أن يحركا أى جسد يحلان به .. هكذا لا تكون (مارجريت) شخصًا على الإطلاق ، بل مجرد طور من أطوار الملكة (تيرا) ..

كيف أصدق هذا الكلام ؟ أصدق أنه لا توجد (مارجريت) ، بل مجرد صورة تحوى روح امرأة ماتت منذ أربعين قرنًا ؟ برغم هذا صارت الصورة أوضح الآن .. تذكر أن (كوربك) قال إن (مارجريت) تشبه الملكة .. لا أصدق أن الأم (توحمت) على صورة الملكة فهى لم ترها قبل أن تموت ..

لماذا اختفى كتاب (فان هيون) الذى قرأت فيه عن جوهرة النجوم السبعة ؟

لماذا وجدنا المصابيح فى مخدعها ؟

ماذا عن شكوك الرقيب (دو) والطبيب فى (مارجريت) ؟ ولماذا تتكلم (مارجريت) بهذه الثقة كأنها تعرف كل شىء عما يدور فى عقل الملكة (تيرا) ؟

ذات مرة قلت لها وأبيها :

ـ « أليس من الحكمة أن نتخذ كل احتياط ممكن فى حالة ما لم تحب الملكة أن نعيدها للحياة ؟ »

كانت إجابة (مارجريت) سريعة ، إذ قالت وكأنها تأهبت من قبل :

ـ « لكنها موافقة ! أبى يفعل بالضبط وبكل جوانحه ما أرادته الملكة ! »

ـ « الظروف تختلف .. لقد أعدت تجربتها لتتم فى الصحراء المنعزلة وفى بلدها .. لاحظى أنها قد لا تحب ما نقوم به ، عندها يجب ألا ننسى أنها قتلت أو تسببت فى قتل تسعة أشخاص حسب ما نعرفه .. يمكنها أن تكون قاسية إذا أرادت .. »

قال مستر (تريلونى) :

- « يا صاحبى ، لا أنكر أن الملكة أرادت العزلة فى تجربتها ، لكن هذا صار مستحيلا بعد ما فتح الهولندى (فان هوين) قبرها .. بالتالى لم أكن أنا من اقتحم خلوتها ولا ذنب لى فى هذا .. فقط أنا أحاول الاستفادة من خيط أحداث لم أكن البادئ فيه .. ولقد قمت بإعداد كل شىء كأحسن ما يكون ، فإن كان ثمة خطأ فهو لعجزى عن فهم جزء من الشفرات التى تركتها . أريد للتجربة العظمى أن تنجح مثلها بالضبط .. »

* * *

أخلدنا للنوم استعدادًا لليلة الغد .. ستكون ليلة مقلقة وقد أراد مستر (تريلونى) أن نسترد قوانا .. سيكون النهار كذلك مليئًا بالعمل ، لأننا يجب أن نعد كل شىء بحيث لا تفشل التجربة نتيجة ثغرات نسيناها ..

أعددنا كذلك العدة لطلب العون لو احتجنا إليه .. فى الواقع كانت مخاوفنا هنا أقل مما كانت فى لندن أثناء غيبوبة مستر (تريلونى) ..

كنت أقل خوفًا من (تيرا) لأنه لو كان الأمر كما نتوقع ، فإن ما نفعله هو أن نحقق إرادتها .. ما كنت أخشاه هو حالة (مارجريت) .. لو كان صحيحًا أنها تحمل شخصية مزدوجة ، فماذا عساه يحدث لو صارت الشخصيتان شيئًا واحدًا ؟ هذه

الفكرة كانت تدفعنى للجنون ، ولم يعزنى فى شىء كون (مارجريت) هادئة وكون أبيها مطمئنًا .. إن الحب شىء أنانى وهو يلقى ظلاً أسود على أى شىء يقف بينه وبين الضوء ..

بدا لى أننى أسمع صوت عقارب الساعة وهى تدور .. أرى كيف يستحيل الظلام للون الرماد ثم يستحيل الرماد إلى ضوء ..

نهضت من فراشى .. ومشيت فى الردهة ، وكنا قد رتبنا أن يظل باب كل منا مواربًا حتى يمكن سماع أى صوت من داخل الغرفة أو خارجها ..

كان الجميع نائمين فى سلام كما عرفت من صوت أنفاسهم ، وقد سرنى أن هذه الليلة المرعبة قد مرت .. نزلت إلى حيث البحر وأنا أنتوى أن أسبح فى الماء البارد بعض الوقت كى أستعيد نفسى القديمة من جديد ..

وقفت أرمق الشمس وهى تشرق صابغة الصخور بلون الذهب .. برغم هذا شعرت بشىء من قلق لأن الضوء كان ساطعًا أكثر من اللازم ، وهو ما ينذر بقدوم عاصفة ..

هنا شعرت بيد على كتفى من الخلف ..

استدرت فوجدت (مارجريت) .. (مارجريت) متألقة كمجد شمس الصباح ! (مارجريت) حبيبتى .. (مارجريت) القديمة بلا شىء يغيرها ..

لكن إذ عدنا بعد جولة قصيرة فى المرتفعات ، بدا لى أن الكآبة والقلق والأمل ما زالوا بانتظارى ..

تناولنا الإفطار ثم عدنا إلى الكهف حيث كان مستر (تريلونى) يرتب كل شىء .. كانت معه أوراق يراجعها ، وكما شرح لنا كانت هذه الأوراق تحوى النقوش التى نسخها مع (كوربك) فى وادى الساحرة فى مصر ..

شرح لنا أشياء لم تكن فى الورق .. مثلاً سوف ترقد المومياء بحيث يكون رأسها للشرق وقدمها للغرب لتتلقى تيارات الأرض الطبيعية .. هذا يعنى أن القوة المستخدمة نوع من الطاقة المغناطيسية .. ثم عرض علينا الخرائط التى رسمها لوضع النقوش والتابوت داخل القبر ، فطلبت منه (مارجريت) أن يعيرها الرسوم لتدرسها ..

ـ « لقد زودت البيت بالتيار الكهربى ، بحيث أتأكد من أن كل ركن مضاء باستمرار .. إن التيار الكهربى يأتى من مولدين يعملان بوساطة أمواج البحر .. هكذا نتأكد من أن أى خطأ لن يحدث(*) .. الآن علينا تحديد الساعة التى تتم فيها التجربة .. على قدر ما أعرف فإن كل الساعات تتشابه ، لكن يجب ألا ننسى أننا نتعامل مع عقل مدقق .. عقل امرأة تؤمن بالسحر وبأن كل

(★) لاحظ أن التيار الكهربى كان اختراعًا وليدًا فى عصر القصة ، ووجوده فى البيت يعنى مزيجًا من الثراء الشديد والدقة فى الإعداد .

شىء له معنى مخفى ، فعلينا أن نفكر بدقة أكثر .. نحن نعرف أن للغروب دورًا مهمًا فى الترتيبات .. فكر كذلك فى الرقم سبعة المهم بالنسبة لها .. من هذا يمكن أن نقدر أنها الساعة السابعة بعد الغروب .. وبما أنها تغرب فى (كورنوول) فى الثامنة ، فإن لنا أن نفترض أن الساعة المختارة هى الثالثة صباحًا ! »

لاحظت شحوب وجه الرجال والصمت الذى ساد المكان بعد هذه الكلمات .. الشخص الوحيد الذى ظل كما هو كان (مارجريت) التى بدا أنها مسرورة جدًا .. وقد تعلم أبوها لسبب ما أن سرورها علامة على دقة استنتاجاته ..

لقد بدا لى تحديد الساعة بهذه الدقة كأنه صوت القدر .. حينما أفكر فى هذا الموقف الآن أفهم كيف يشعر الرجل المحكوم عليه بسماع ساعة التنفيذ .. لا تراجع الآن ..

ملأنا المصابيح بالزيت وتأكدنا من أن الفتائل فى حالة طيبة ..

كانت الساعة الرابعة فجلسنا لتناول غداء متأخر .. ثم اقترحت على (مارجريت) أن تنام بعض الوقت كى تقاوم إرهاق الليلة ..

تناولنا الشاى بعد الاستيقاظ فلحقت بنا (مارجريت) ، وقالت لأبيها :

ـ « لقد رحت أدرس تلك الرسوم وما قلته لنا اليوم .. وأرى أن من الممكن أن تكون هناك قراءة أخرى ! »

سألها فى قلق :

ـ « وما هى ؟ »

ـ « عند الغروب تدخل الـ (كا) إلى الـ (آب) .. أى أن الروح تدخل القلب .. ولن تغادره إلا مع الشروق .. أى أن هذه الليلة تظل صورة الملكة الحرة فى قلبها . قلبها الفانى الذى لا يستطيع ترك بقايا المومياء .. حينما تلمس الشمس الماء ـ أى وقت الغروب ـ ستكف الملكة عن التواجد ككائن واع ، إلى أن تشرق الشمس ثانية .. ما لم تستدعها التجربة العظمى .. أى أننا سنكون فى مأمن منها وقت التجربة لأنها ستكون مجرد جثة بائسة معدومة الحيلة .. »

واستدارت لتبتعد ورأيت للحظة فى عينيها أثر الدموع .. لكن أباها لم يرقّ لهذه الدموع .. كان يصغى بصرامة ذكرتنى بوجهه عندما كان تحت تأثير الغيبوبة ..

عدت لغرفتى للراحة بعض الوقت ، عندما طرق (كوربك) الباب وقال لى إن مستر (تريلونى) يريدنا فى الكهف حالاً ..

هرعت إلى هناك ، ولحقت بنا (مارجريت) وقطها فى حضنها .. حينما رأى القط عدوه القديم ـ مومياء القط ـ حاول أن ينزل لكنها أحكمت السيطرة عليه ..

نظرت لساعتى فوجدتها الثامنة ..

قال الأب :

ـ « هل تؤمنين حقًا يا (مارجريت) أن الملكة (تيرا) قبلت بإرادتها أن تظل مجرد مومياء بلا حيلة إلى أن تتم التجربة ؟ »

بعد صمت قالت (مارجريت) :

ـ « نعم .. »

لاحظت أن صوتها ونظراتها وكل شىء فيها قد تغير .. حتى القط لاحظ هذا فتملص من ذراعيها .. وللغرابة لم يهاجم مومياء القط بل انكمش خائفًا ثم زحف على ساقى ومسح نفسه مصدرًا (مياو) مثيرة للشفقة ..

ـ « إذن لو كنت أنت الملكة (تيرا) لحاولت إثبات هذه التجربة مهما حدث ؟ »

قالت فى ثبات :

ـ « نعم .. بأية طريقة .. »

ماذا يجرى هنا ؟ ثمة شىء مهم لكننا لا نفهم كنهه ..

اتجه (تريلونى) إلى الجهة الغربية ومزق ستارًا يحجب النافذة .. هب الهواء البارد ومعه بدا مشهد الغروب .. أشار إلى

حيث كانت الشمس تغطس فى ماء البحر ، وقال بصوت لن أنساه حتى الممات :

ـ « اختارى .. تكلمى ! لو اضطررت للتخلى عن شيطانك فهل تقبلين ؟ لو غابت الشمس نهائيًا يكون أوان التراجع قد فات ! »

ـ « متأكدة .. لو كنت فى مكان (تيرا) لتخليت عن كل شىء .. هذه الليلة للأرباب فقط .. »

ووقفت جوار مومياء القط ..

غابت الشمس وسقط الظل البارد على وجوهنا .. هنا استعادت كل لطفها ورقتها ، وقالت :

ـ « لقد غربت الشمس يا أبى .. ترى هل نعيش لنرى ليلة أخرى ؟ لقد جاءت ليلة الليالى ! »

الفصل 16

التجربة العظمى

من الغريب أن ترى مدى ما بلغه تصديقنا للقصة ، وقبولنا لكلام (مارجريت) كأمر مسلم به ..

لقد تعاوننا مع مستر (تريلونى) على إنزال منضدة من خشب البلوط إلى الكهف .. وضعناها تحت مجموعة من الأضواء فى وسط الكهف .. نظرت لها (مارجريت) بعض الوقت ثم شحب وجهها ، وبصوت متوتر سألت :

ـ « ماذا ستفعله يا أبى ؟ »

ـ « سأفك مومياء القط .. الملكة (تيرا) لن تحتاج إلى شيطانها الليلة .. لو أنها احتاجت إليه فلسوف نكون فى خطر .. »

ـ « فقط أفكر فى (سيلفيو) .. كيف يكون شعورى لو كانت مومياؤه هى التى ستفك من أربطتها ! »

أحضر (تريلونى) مقصًا ومبضعًا .. شعرت بمعدتى تتقلص .. هذه بداية عملنا .. ماذا سيراه هذا الكهف عندما يمر منتصف الليل ؟ صوت الريح فى الخارج يزيد شعور الوحشة .. والأمواج تضرب الشط كأنها النذير .. لكننا بدأنا فك المومياء ..

كان عدد الأربطة خياليًا .. وقد تم لصقها بالصمغ والقار .. تصاعد غبار أحمر عذب حواسنا أكثر .. أخيرًا رأينا الحيوان جالسًا أمامنا وكانت أسنانه ومخالبه سليمة .. وكانت عيناه مغمضتين لكن وجهه لم يكن مفزعًا كما توقعت .. كان ضخمًا كأنه نمر صغير .. وكلما نظرنا له أكثر بدأنا نشعر بالرعب .. فهنا تجد الدليل على أن مخاوفنا حقيقية ..

كان فمه ملطخًا بدم جاف !

أخرج د . (ونشستر) عدسة وراح يفحص مخالب المخلوق ، ثم قال :

ـ « كما توقعت .. فى يده سبعة أصابع ! »

حمل (تريلونى) المخلوق واتجه للباب ، فصاحت (مارجريت) :

ـ « خذ الحذر يا أبى .. قد يؤذيك ! إلى أين أنت ذاهب ؟ »

ـ « إلى المطبخ يا بنيتى .. إن النار قادرة على القضاء على أى خطر .. حتى الجسد النجمى لا يتجسد من رماد .. »

أطلقت شهقة وبدأت تبكى فكدت ألحق بها ، لكنها أشارت لى كى أبتعد :

ـ « اذهب مع الآخرين للمطبخ .. قد يحتاج لك أبى .. يا للحيوان المسكين ! قط الملكة المفضل ! هذه جريمة قتل ! »

فى المطبخ كانت هناك كومة من الأخشاب .. أشعل مستر (تريلونى) النار فيها وألقى جسد القط .. فى لحظات صار الجسد كتلة سوداء وسط اللهب وامتلأت الحجرة برائحة الشعر المحروق .. مواد التحنيط صارت وقودًا بدورها وسرعان ما اشتعلت ..

لقد تلاشى شيطان الملكة (تيرا) !

عدنا إلى (مارجريت) التى كانت جالسة فى الظلام .. وسألتنا :

ـ « ماذا سنفعل الآن ؟ »

قال الأب :

ـ « سوف نفك الأربطة عن الملكة (تيرا) ! »

دنت منه ، وهمست :

ـ « أبى .. أنت لن تفعل هذا .. كلكم رجال وهذا الضوء يكشف كل شىء .. تصور يا أبى .. امرأة .. وحدها .. فى هذا المكان .. »

ربت على كتفها مواسيًا ، وقال :

ـ « ليست امرأة يا بنيتى بل مومياء .. لقد ظلت ميتة خمسة آلاف سنة ! »

ـ « المرأة هى المرأة حتى لو بعد خمسة آلاف قرن .. ثم إنك تقول إنها ستنهض .. إذن هى ليست ميتة فعلاً .. »

ـ « هذه ليست مسرة بل هى تجربة مروعة قد تغير وجه الكون .. وهناك أخطار داهمة قد تمس كل شخص هنا .. نحن لا نلعب بل بصدد مسألة شديدة الخطر .. »

قبلته ، وقالت :

ـ « افعل ما تراه يا أبى وإن كنت أعتبرها إهانة عظيمة لملكة وامرأة .. »

هكذا تعاوننا على فتح التابوت وأخرجنا المومياء .. كانت طويلة القامة عريضة ثقيلة .. لكننا نجحنا فى نقلها إلى المنضدة ..

وبدأنا فى فك الأربطة .. كانت كثيرة جدًا .. وبرغم هذا كانت تكشف عن الجسد البشرى الذى بدا فى أرهب حالاته وهو مغطى .. كان ما نراه هو الموت ولا شىء سواه ..

كان المستكشفان قد قاما بهذا العمل كثيرًا وكان الطبيب بحكم عمله معتادًا هذه الأمور ، لكنى أنا المحامى وقفت شاعرًا بالعار والألم والاشمئزاز .. لم أتدخل فى العملية ، لكن كومة الأربطة راحت تتجمع على الأرض عالية مهولة ..

لقد بدأ حجم المومياء ينكمش إلى المقاييس البشرية العادية ، وكان الأب ينزع آخر الأربطة الآن .. ثم نظر لابنته ، وقال :

ـ « لا تقلقى .. الملكة ترتدى روبًا ! »

كانت الملكة مدثرة من القدمين حتى الذقن فى ثوب حريرى لا شك فى أنه أفخم نوع من الحرير رأته عيوننا .. وقد ضم إلى العنق والقدمين بحلية من ذهب ، كما كانت تحيط بالجسد حزمة من الجواهر .. حزمة تبدو من وهجها كأنها نجوم حبيسة ..

نظرت (مارجريت) إلى المشهد ، ثم وقفت وقالت بلهجة العليم :

ـ « هذا ليس كفنًا .. لم يقصد به تغطية الموت .. إنه ثوب زفاف ! »

تفحص (تريلونى) الثوب وعرفت من تلاحق أنفاسه أنه مندهش ، ثم قال :

ـ « بالفعل هذا ليس كفنًا .. إنه لا يلتف حول الجسد بل وضع فوقه .. »

ومد يده يحمل الثوب فى رفق بين يديه .. شىء بهذا الجمال لا يمكن التعامل معه إلا بحذر ..

ووقفنا ننظر إلى الملكة رائعة الحسن الراقدة أمامنا مجردة .. لم يكن هذا يشبه الموت بأى حال .. كان أقرب إلى تمثال من عاج نحته (براكستيلس) .. لا شىء من انكماش المومياوات وجفافها .. اللحم ممتلئ محتفظ بنعومته ومسامه .. هنا ـ فى

مزيج من غضب وحياء ـ ألقت (مارجريت) الثوب على الجسد العارى حتى لم يبق منه مكشوفًا إلا الوجه ..

أنف ملىء بالكبرياء ، وأهداب ترقد فوق الخدين .. شعر أسود كجناحى غراب . لقد أذهلنى شبهها الشديد مع (مارجريت) برغم أن كلمات (كوربك) السابقة جعلتنى أتهيأ لهذا ..

هنا انهار (تريلونى) فهرعت (مارجريت) تساعده .. قال لها :

ـ « أشعر كأن هذه جثتك يا طفلتى ! »

ودوت العاصفة بعنف فى الخارج ، على حين قال :

ـ « يجب معرفة طريقتها فى التحنيط .. هذه ليست كأية طريقة أعرفها ، ولم يتم إفراغ الأحشاء .. إن الأوردة ممتلئة ليس بالدم لكن بشىء آخر .. هل يكون القوم وقتها قد تعلموا حقن الأوردة بشمع البارافين ؟ »

رحنا ننتظر فى المكتبة متوترين ، فقد بقيت ساعتان على موعد التجربة .. الساعة السابعة بعد الغروب أى الثالثة صباحًا .. استراحت (مارجريت) فى غرفة أبيها ، وعندما دقت الساعة الثانية صباحًا بدا أننا نفيق من غيبوبة .. أعددنا أجهزة الاستنشاق التى قدرنا أننا سنكون بحاجة لها لو انبعث غاز سام ما ..

وضعنا اليد المبتورة فى موضعها الصحيح فوق صدرها .. تحتها كانت جوهرة النجوم السبعة ، التى جلبها مستر (تريلونى) من الخزانة .. بدت كأنها تتألق بلا توقف فى الضوء الكهربى ..

وضعنا أجهزة الاستنشاق وجلسنا كما اتفقنا .. كنت أقف جوار محول الكهرباء لأظلم الأنوار أو أشغلها حسب أوامر مستر (تريلونى) ، وكانت أوامره لى مرعبة وتحذيره أخطر .. قال إن موت أحدنا قد يحدث بسبب عدم التزامى حرفيًا بتعليماته ..

كان على مستر (تريلونى) و(كوربك) التأكد من إضاءة المصابيح الزيتية .. وليقف الأول عند رأس والثانى عند قدم التابوت .

كان مرور الدقائق الباقية مرعبًا .. إذ وقف مستر (تريلونى) ينظر لساعته والثقاب فى يده كأنه مدفعجى فى الحروب الغابرة ..

ثم دق الجرس .. مرة .. مرتين . ثلاثًا !

اشتعلت فتائل المصابيح وأطفأت النور الكهربى .. لقد اتخذت الغرفة شكلاً مرعبًا وبدا كأن كل شىء يتبدل ..

وانتظرنا وقلوبنا تخفق .. على الأقل أعرف أن قلبى فعل ذلك .. مصاريع النوافذ ترجها العاصفة كأن شيئًا بالخارج يحاول الدخول .. كأن الزمن توقف ...

فجأة دوى صوت كالانفجار وانفتح الصندوق الحجرى ..

لا شك فيما يحدث الآن .. تحرك الغطاء للجانب ثم بدأ يرتفع ببطء .. ومن الصندوق بدأ بخار يتصاعد متجهًا نحو التابوت .. لم أستطع معرفة الرائحة بسبب جهاز الاستنشاق لكنى خمنت أن له رائحة نفاذة غريبة .

لم أعد أدرى إن كان الصندوق يتألق أم هو التابوت .. وكان الدخان يزداد كثافة متجهًا نحو المومياء ..

لم أستطع فهم ما يحدث لأنى كنت بعيدًا ، ووددت لو اقتربت لأرى لكنى تذكرت تحذير مستر (تريلونى) لى ..

العاصفة تتزايد حتى بدت لى كأنها شخص حى غاضب .. خيل لى أن شيئًا أبيض يرتفع من التابوت ، لكن عينى كانتا منهكتين من الوهج الأبيض فلم أثق بهما البتة ..

شىء يشبه الضباب ووسطه أرى تلك الجوهرة .. والضوء يسبح من هذا الضباب إلى الصندوق .. إنها معجزة الضوء !

هنا كانت العاصفة قد انتصرت ، وسرعان ما اندفع تيار من الهواء ليفتح مصراع النافذة ويرتطم بالجدار ، ثم انطفأت المصابيح كلها وتبدد الضباب الأخضر ..

بدأ دخان أسود يتصاعد من الصندوق .. ازداد كثافة حتى صارت الرؤية فى الكهف كله عسيرة .. أشار مستر (تريلونى) لـ (كوربك) فأسرع يحاول إغلاق المصراع من جديد ..

كنت أتمنى أن أساعد لكن مكانى جوار محول الكهرباء كان أكثر أهمية .. سوف يكون للضوء أهمية كبرى لو استمر هذا الجحيم ..

إن الظلام يتزايد .. ويبدو أن أضواء الصندوق تضعف بلا توقف .. كما أن المصابيح كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ..

الضباب يتزايد .. والرائحة تمزق أنوفنا وعيوننا ..

ثم بدأت أرى شيئًا يتحرك من موضع التابوت .. استطعت أن أرى لمحة من اللون الأبيض .. وساد الظلام أخيرًا ..

كان هذا هو الوقت المناسب للكلام ، فقلت بصوت عال :

ـ « هل أعيد الأضواء يا مستر (تريلونى) ؟ »

لا إجابة ..

ـ « مستر (تريلونى) .. سوف أعيد الضوء .. لو لم تمنعنى من ذلك .. »

لم تكن هناك إجابة لذا شغلت المحول .. لكن الضوء الكهربى لم يعد ! ثمة خطأ جسيم هنا !

انطلقت قاصدًا الدرج لأعرف السبب ، لكنى لم أر شيئًا .. كان الظلام دامسًا ..

مشيت عبر الغرفة إلى حيث (مارجريت) لكننى تعثرت فى جسد على الأرض .. شعرت من ثوبها أنها امرأة .. سقط قلبى فى قدمى .. (مارجريت) فاقدة الوعى أو ميتة .. رفعت الجسد فى يدى ومشيت حتى اصطدمت بجدار .. ثم إلى ممشى وأخيرًا وجدت درجات سلم . وصعدت الدرج تحركنى عواطفى مما جعلنى لا أشعر بثقل هذا الجسد العزيز الذى أحمله ..

أرقدت الجسد على أرض الصالة وهرعت لغرفة (مارجريت) حيث أعرف أن هناك أعواد ثقاب .. أشعلت ثقابًا وشعرت بسرور لأننى أرى النور من جديد ..

أشعلت شمعتين وعدت للردهة بحثًا عن مارجريت .. لكن جسدها لم يكن هناك !

فقط كان ثوب العروس الخاص بالملكة (تيرا) على الأرض .. وحيث كان القلب وجدت جوهرة النجوم السبعة ..

شعرت بغثيان ورعب لا اسم له ..

عدت إلى الكهف والشمعتان فى يدى .. وضعت جهاز الاستنشاق على فمى وبحثت عن رفاقى .. وجدتهم جميعًا حيث تركتهم ..

ممددين على الأرض يحدقون فى السقف بعيون شاخصة من الذعر ..

(مارجريت) غطت وجهها بيديها لكن نظرة الهلع فى عينيها الزجاجيتين كانت تبدو بين أناملها ..

فتحت مصراع النافذة لأسمح للهواء بالدخول .. كانت العاصفة تخمد بسرعة كما بدأت ..

لقد أنهت عملها !

حاولت ما أستطيع مع رفاقى لأنقذهم لكن بلا جدوى ..

هنا فى هذا البيت المقفر بعيدًا عن عون البشر ، انتصر الهلاك .. ومن رحمة الله أننى لم أضطر لتحمل عذاب الأمل ..

برام ستوكر 1903

النهاية الثانية التى ظهرت فى طبعة عام 1912

(تبدأ من اللحظة التى صارت فيها الساعة الثانية صباحًا)

بدا أن صوت دقات الساعة معلنة الثانية صباحًا قد أنعشنا جميعًا .. كأن كل الظلال التى أحاطت بنا قد زالت فجأة ..

بدأنا نمارس مهماتنا فى نشاط ويقظة .. .. أعددنا أجهزة الاستنشاق التى قدرنا أننا سنكون بحاجة لها لو انبعث غاز سام ما .. ثم إننا نقلنا مومياء الملكة (تيرا) إلى أريكة فى غرفة الأب ، وغطيناها بملاءة بحيث لو نهضت يكفيها الانزلاق من تحتها ..

وضعنا اليد المقطوعة فى مكانها على صدر المومياء ، وتحتها جوهرة النجوم السبعة ، التى جلبها مستر (تريلونى) من الخزانة .. بدت كأنها تتألق بلا توقف فى الضوء الكهربى ..

كان مشهدًا غريبًا أن ترى هذه المجموعة من الرجال الصامتين يحملون هذا الجسد الذى يبدو كتمثال من عاج .. وضعناه على الأريكة ..

كان الشبه بين (مارجريت) والمومياء قد أثار ذهولنا ، خاصة مع شحوب (مارجريت) الشديد ..

وعندما لم يبق من الوقت إلا القليل طلبت (مارجريت) منى أن نأتى بـ (سيلفيو) .. جاء إليها وهو يقر فاحتضنته إلى صدرها .. أغلقت باب الغرفة وراءنا شاعرًا بشعور مقبض بالنهاية .. لن تكون هناك عودة ..

وضعنا أجهزة الاستنشاق ، واتخذنا أماكننا التى رتبناها ..

دوت دقات الساعة فبدا أنها تضرب قلوبنا..

مرة .. مرتين . ثلاثًا !

اشتعلت فتائل المصابيح وأطفأت النور الكهربى .. لقد اتخذت الغرفة شكلاً مرعبًا وبدا كأن كل شىء يتبدل ..

وانتظرنا وقلوبنا تخفق .. على الأقل أعرف أن قلبى فعل ذلك ..

أرى ثوب (مارجريت) الأبيض وحده وسط الظلام وأرى أجهزة الاستنشاق على الأنوف .. أرى فك مستر (تريلونى) المربع ووجه (كوربك) الحليق .. وعبر الغرفة أرى عينى (سيلفيو) كزمردتين ..

الآن صار الضوء أكثر ثباتًا .. وبدا كأنه يتغير من الأزرق إلى الأبيض الشفاف ..

فجأة دوى صوت كالانفجار وانفتح الصندوق الحجرى ..

لا شك فيما يحدث الآن .. تحرك الغطاء للجانب ثم بدأ يرتفع ببطء .. ومن الصندوق بدأ بخار يتصاعد متجهًا نحو التابوت .. لم أستطع شم الرائحة بسبب جهاز الاستنشاق لكنى خمنت أن له رائحة نفاذة غريبة .

ازداد الدخان كثافة فلم أعد أرى (تريلونى) ولا (مارجريت) .. ولاحظت أن المصابيح أوشكت على الانطفاء .. هذا غريب .. لابد أنها استنفدت وقودها فى فترة أقصر مما توقعنا ..

انتظرت وانتظرت .. متوقعًا فى كل لحظة أن أسمع الأمر بإضاءة النور لكن لا شىء من هذا ..

وما زال الدخان يتصاعد بكثافة من التابوت .. بينما المصابيح تلفظ أنفاسها الأخيرة ..

أسمع صوت مواء (سيلفيو) المثير للشفقة وأرى لمحات من ثوب (مارجريت) التى فاق قلقى عليها الوصف ..

شعرت بـ (سيلفيو) يتمسح فى ساقى .. ثم تلاشى آخر قبس من الضوء ، فلم يبق إلا بياض خفيف حول ستائر النافذة .. نزعت جهاز الاستنشاق ، وصحت:

ـ « هل أعيد الأضواء يا مستر (تريلونى) ؟ »

لا إجابة ..

ـ « مستر (تريلونى) .. سوف أعيد الضوء .. لو لم تمنعنى من ذلك .. »

لا إجابة ، لكنى عبر الغرفة سمعت صوت (مارجريت) يتكلم فى رقة وعذوبة كأنه الجرس ..

ـ « نعم يا(مالكولم) .. »

حركت المحول فعادت الأضواء .. لكنها كانت مجرد جزر ضوئية وسط بحر من الظلام .. جريت نحو (مارجريت) مهتديًا بثوبها الأبيض واعتصرت يدها فى يدى ، ولقد أدركت لهفتى ، فقالت :

ـ « أنا بخير .. »

ـ « الحمد لله .. لكن أين الآخرون ؟ تعالى نفتح النوافذ ليخرج هذا الدخان .. »

لدهشتى قالت فى طريقة ناعسة :

ـ « سيكونون على ما يرام ولن يصيبهم أذى . »

لم أسألها عن مصدر استنتاجها وفتحت النوافذ والباب .. سرعان ما بدأ الدخان الأسود يخرج من النوافذ وبدأت أرى معالم الغرفة ..

جوار الأريكة كان د . (ونشستر) على ظهره .. وعلى الجهة الأخرى من التابوت رقد مستر (تريلونى) و(كوربك) .. وسرنى أنه برغم فقدانهم الوعى كانوا يتنفسون بصعوبة ..

(مارجريت) كانت فى حالة من الاضطراب ولكنها ساعدتنى على حمل أبيها إلى جوار نافذة من النوافذ .. وكذا فعلنا بالباقين ..

حتى اللحظة كانت مشكلتى هى إعادتهم للوعى ، والآن وقد بدءوا يفيقون بدأت أتساءل عما صار إليه مصير هذه التجربة ..

كان الصندوق مفتوحًا وقد بدا واضحا أنه مقسم من الداخل ، لكن كل محتوياته تحولت إلى سناج أسود .. كذا كان التابوت .. كل شىء فى الغرفة تحول إلى سناج لزج ..

كانت الملاءة على الأريكة كما هى لكنها أزيحت جانبا كما يفعل المرء عندما يغادر الفراش ..

لكن لا أثر للملكة (تيرا) !

وضعت يدى على كتفى (مارجريت) ، وهمست لها :

ـ « ماذا حدث للملكة ؟ قولى لى .. أنت كنت قريبة ورأيت كل شىء .. »

قالت فى نعومة :

ـ « لم يكن هناك شىء يمكن أن أراه .. ظلت عيناى على الأريكة حتى ازداد الدخان كثافة .. شعرت بحركة قريبة منى وخطر لى أن هذا د . (ونشستر) ، ثم فكرت فى أنها الملكة تمشى ! تخليت عن (سيلفيو) ولا أعرف أين ذهب .. »

كأنما يرد عليها جاء(سيلفيو) ومسح نفسه فى ثوبها فحملته بين ذراعيها ..

عندما عاد مستر (تريلونى) لوعيه وبعده مستر (كوربك) رحنا نفتش الغرفة بعناية .. لم نجد إلا بعض الغبار له رائحة غريبة تذكرك بالموت .. على الأريكة كانت الجوهرة التى تضعها الملكة فى شعرها ..

فيما عدا هذا لم نعرف قط ما حدث .. لكن شيئًا واحدًا جعلنا نرجح تدمير المومياء .. إن الغبار الذى وجدناه هو ذاته الغبار الذى تبقى بعد عملية حرق مومياء القط ..

★ ★ ★

فى الخريف تزوجتُ (مارجريت) .. .

وقد ارتدتْ فى حفل الزفاف ذات الجواهر التى كانت الملكة تضعها فى شعرها .. وعلى صدرها ارتدت قلادة من ذهب تحمل جوهرة النجوم السبعة .. كانت الشمس تلتمع عليها فتتألق كأنما تنبض بالحياة ..

اعتدنا أن نفكر فى الملكة العظيمة ولطالما تكلمنا عنها .. قلت لزوجتى إننى حزين لأن الملكة لم تخط لعالم جديد وحياة جديدة ، فوضعت زوجتى يديها بين يدى ، وبدت فى عينيها تلك النظرة الحالمة ، وقالت :

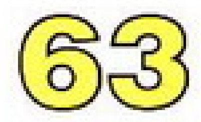
ـ « لا تحزن من أجلها ! من يدرى ؟ لربما وجدت السرور الذى كانت تبحث عنه .. الحب والصبر هما سبب سعادة الكون .. فى هذا العالم .. فى الماضى .. فى الحاضر .. لقد حلمت حلمها ، وهذا هو كل ما يطمح له أى واحد فينا » .

برام ستوكر 1912

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية





جوهرة النجوم السبعة

كانت الملكة (تيرا) تعرف أن الكهنة سيحاربونها وسيحاولون محو اسمها ؛ لذا قررت أن تتعلم أساليبهم وأن تمارس السحر الأسود كى تعود للحياة يومًا ما .. دُفنت مومياء (تيرا) خمسة آلاف سنة ، ثم ظهر ذلك المستكشف البريطانى الأحمق الذى قرر ألا يبالى بهذا كله .. أحمق لدرجة ألا يهتم بحقيقة أن ابنته تشبه الملكة بشكل مريب ! .. يكفينا هذا ولندع سيد الرعب القوطى (برام ستوكر) يحكى لنا القصة بنفسه ..

العدد القادم

مغامرات أرسين لوبين

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الامريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



